وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة سعيدة
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللغة العربية وآدابها

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر

تخصُّص: نقد عربي قديم

موسومة بـ:

جماليات القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام

– دراسة فنِّية: شعر حسَّان بن ثابت –أنموذجا–

* من إعداد الطالب:
– بلمبروك نوم

* بإشراف الأستاذ:
رابحي عبد القادر

✓ لجنة المناقشة:

أ. د / عبيد نصر الدين ..... رئيساً
أ. د/ رابحي عبد القادر ..... مشرفاً
أ. د/ زروقي معمر ..... مناقشاً

الموسم الجامعي:
2019 /2018 – 1440/1439

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨

قـال تعالـى:

سورة المجادلة – الآية: 11

شكر وعرفان

قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم:

"من لا يشكر الناس لا يشكر الله"

الحمد لله الذي بعث فينا من علَّمنا أن نقول: "الحمدُ لله عددَ ما خلق، الحمدُ لله مِلْءَ ما خلق، الحمدُ لله عددَ ما في السمواتِ وما في الأرضِ، الحمدُ لله عددَ ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله على ما أحصى كتابُه، والحمدُ لله عددَ كلِّ شيءٍ، والحمدُ لله مِلْءُ كلِّ شيءٍ".

أمَّا بعـد؛

- فشكري موصول إلى من أوصى الله بهما إحساناً وحسنا: "والديَّ".

- كما أَصِل الشكر الجزيل لأستاذي الكريم الدكتور: عبد القادر رابحي، على توجيهاته التي رسمت لي طريقاً فجعلتُ منها مدَّخراً لهذا العمل وما بعده – إن شاء الله–.

- إلى كل أساتذة وعمَّال قسم اللغة والأدب العربي بجامعة سعيدة، أقول: شكراً.

إهداء

- إلى من حملتني وهناً على وهنٍ؛
- إلى من رافَقَتنِي دعواتُها في السرَّاء والضرَّاء؛
- إلى "أمّي".
- إلى من بَذَلَ ولم يقصّر: "أبي".
- إلى من ترقَّبتِ نَجاحِي: "جدَّتي".
- إلى إخوتي جميعاً.
- إلى أستاذي الكريم: رابحي عبد القادر.
- إلى الأستاذين الفاضلين: عبيد نصر الدين، زروقي معمر.
- إلى جميع الأصدقاء.

إليكم جميعاً – أهدي عملي.

نـوح

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد؛

لا مِراء في أنَّ الشعر له مكانته عند العربي سواءً أكان قبل الإسلام أم بعده، وإنَّ المتأمل في تصانيف الكتب ودواوين الشعراء يجد أنَّ الشعر في العصر الجاهلي كان له أثر بالغ في الحياة الاجتماعية والثقافية، فقد كانت العرب تُقيم الولائم وتُبدي المكارم، وتَجتمع فِيها العَزَائِم إذا نَبَغَ فيها شاعر، وقد كانت مترلته من أرقى المنازل وأقومها، وبذلك يتحدَّى الشَّاعر فَيُبدِع، ويقابل فيردّ، ويحاصر أَعدَاءَه فيُخشى، ذلك أنَّه لسان قومه والمنافح عنهم.

لم يكن تأثير الشعر -في نفوس العرب- مقتصراً على العصر الجاهلي فحسب، وإنَّما نجد أنَّ له المكانة نفسها في عصور وأزمنة مختلفة أهمُّها العصر الإسلامي ذلك أنَّه جاء مُتَفَرِّداً من حيث الخصائص والأغراض الفنّية والأهمية أيضاً، فقد شَهِدَ تغيُّرات جذرية مسَّت عدَّة جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية، وكانت البعثة النبوية أوَّل دافع لها، فقد أرسل الله نبيَّه بالحقِّ مبشِّراً ومنذراً ورسولا نبيًّا، يتلو ما أوحي إليه من كتاب الله، ومبيِّناً لشَرعِه، وبذلك أتمَّ الله فتحه وأنزل قرآنه.

إنَّ المتأمِّل في طيَّات التأريخ الإسلامي لِما فيه من مناقب وآثار، لَيَعلَمُ موقناً أنَّ الدِّين جاء ليَجُبَّ ما قبله، ويصرف النَّاس عمَّا اشتغلوا به وعنه، فقد بيَّن وفصَّل، ثم أقرَّ وأبدل، يقرُّ المكارم ويوثقها، وينقض المهالك فيُبدِلُها.

يُعَدُّ عصر صدر الإسلام -الذي امتدَّ أربعة عقود ابتداءً من البعثة إلى القرن الرابع الهجري- من بين العصور التي حفلت بانتصارات المسلمين عامة وبالعرب خاصة، وقد كان التأريخ لهذه الحقبة من الزمن مقروناً -أيضا- بالشعر، فصار بعد ذلك مرجعاً قويماً وسهمًا لِلحُجَّة ودليلاً أميناً، وتراثاً دينياً وثقافياً يرسم معالم الحضارة الإسلامية الحقَّة.

والدارس للمحتوى الأدبي والشعري لهذه الفترة التاريخية ستنجلي عنه تلك الشكوك التي تعدُّ نتاجاً لاختلاف بعض الدراسات النقدية، والتي نجدها تتهم هذا العصر بالقصور، وتتناوله بنفس الميزان النقدي الذي تناولت به فترات متقدّمة -عنه- أو متأخرة. وإنَّ الميزان الأول الذي ينبغي أن يُعرض عليه الأدب والشعر في هذا العصر تَحرّز الشعراء -آنذاك- من أن يكون الشعر

مِعوَل هدمٍ لتعاليم الدين الإسلامي، فاتَّخذوه وسيلةً في أجلِّ غايةٍ ألا وهي الدعوة إلى الله، إنَّه ذات الميزان الذي أقامه بنو تميم في شعر حسَّان بن ثابت في قصَّة إسلامهم.

وقع اختياري على موضوع "جماليات القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام"، وذلك لأهميتها وأهمية الفترة التي جاءت فيها، فقد تنوَّعت ضُروبها وتعدَّدت أغراضها وانسجمت ألفاظها؛ وإنَّه حري بنا أن ندرس هذه الفترة دراسة موضوعية من عدَّة جوانب، فهي تستحق ذلك، وهذا لا يعني أنَّ هذه الدراسة جاءت متفرِّدة، وإنَّما هي غَيضٌ من فَيضِ ما جادت به الدراسات السابقة، وتناقلته الآراء السالفة.

*** أسباب اختيار الموضوع:**

- إدراكي لأهمية الاطلاع والتعرف على الموروث الأدبي.
- معالجة القضايا الشعرية وتوجهاتها.
- تفضيل الشعر عن باقي الفنون الأدبية الأخرى.

*** أهمية البحث:**

تكمن أهمية هذا البحث فيما يلي؛

- إثراء الرصيد المعرفي واستخلاص بعض ما يتعلق بالموضوع.
- التعوُّد على اتّباع الأساليب والقواعد العلمية المعتمدة في كتابة البحوث، وكذا استخدام الوثائق والكتب ومصادر المعلومات والربط بينهم للوصول إلى نتائج جديدة.
- التعوُّد على معالجة المواضيع بموضوعية ونزاهة ونظام في العمل.

*** إشكالية البحث:**

أما دراستي لموضوع: "جماليات القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام" فقد تأسست بعد طرح جملة من التساؤلات، تمثلت فيما يلي؛

- هل تأثّر الشعر بالحياة الجديدة في عصر صدر الإسلام؟
- ما هي التحولات الكبرى التي طرأت على الأدب والشعر في هذا العصر؟ وما أبرز العوامل التي مهدت لها؟ وكيف أسهمت في تعزيز الصورة الفنِّية التي تُعدُّ جانباً من الجوانب الجمالية في القصيدة العربية؟.

للإجابة عن هذه التساؤلات، قمت بتقسيم البحث وفق الخطة التالية:

فصل أول تطرقت فيه إلى عصر صدر الإسلام وأثره في الشعر، وقد حاولت الإلمام ببعض العناصر المتمثلة في: التحولات الكبرى التي مسَّت المجتمع العربي، وقد تحدّثت في هذا الجزء عن حال العرب قبل وبعد ظهور الإسلام، وسلَّطت الضوء على خصوصيات الشعر "ديوان العرب"، مشتغلاً على بعض قضاياه، ثم ختمته بذكر بعض المؤثرات العامة في شعر صدر الإسلام؛ وأما الفصل الثاني فقد عرضت فيه لشعر صدر الإسلام من حيث خصائصه، وأغراضه -في هذه الفترة-، ثم جانب تطبيقي تناولت فيه الصورة الفنِّية في شعر حسَّان بن ثابت.

وأما عن أهم المؤّلفات التي اعتمدت عليها في إنجاز هذا البحث، كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة، وكتاب "تاريخ الأدب العربي" لـ: شوقي ضيف، وكذلك تاريخ الأدب العربي لـ: أحمد حسن الزيات، و"تاريخ الأدب العربي" لـ: "عمر فروخ"، بالإضافة إلى الدواوين الشعرية: خاصة ديوان: حسَّان بن ثابت، لمحقِّقِه: مهنا عبد. أ وبعض الدواوين الأخرى لـ: "كعب بن زهير ، كعب بن مالك".

*** منهج البحث:**

في هذا البحث اعتمدت المنهج التاريخي، الذي ساعدني في تتبع التحولات الكبرى التي طرأت على المجتمع والشعر في هذا العصر بعد تحصيل عدَّة عناصر، وكذلك المنهج الاستقرائي في الجزء الثاني من الدراسة والذي اعتمدت فيه على التحليل قصد الوصول إلى نتائج تُمكِّنني من صياغة محتوى الموضوع.

وقد واجهتني بعض الصعوبات المتمثّلة في اختلاف الدراسات وتناقضها حول عصر صدر الإسلام، بالإضافة إلى افتقار بعضها للجانب التطبيقي.

* الفصل الأول:

عصر صدر الإسلام وأثره في الشعر

1- التحولات الكبرى التي مسَّت المجتمع العربي

1-1- العرب قبل الإسلام

1-2- مكانة الشعر قبل الإسلام

1-3- حال العرب بُعَيد ظهور الإسلام

2- الشعر في عصر صدر الإسلام

2-1- موقف الإسلام من الشعر

2-2- جودة الشعر في صدر الإسلام

2-3- المؤثرات العامة في شعر صدر الإسلام

*** تمهيد:**

تميَّزت الجزيرة العربية وبلاد العرب بموقعها الهام وبيئتها المُلهِمة، فقد جاءت وصلة همزٍ بين أهم الطرق الرئيسية -بين الشرق والغرب-، وبذلك تعدُّ الحجاز قلب الجزيرة العربية، ومنطلق البشرية جمعا، وكانت الكعبة المشرفة قبلة الحُجَّاج ومقصدهم قبل وبعد ظهور الإسلام؛ أمَّا العرب فقد صُنِّفت في طبقتين: عرب بائدة كقوم عاد وثمود وإرم ..إلخ، وعرب باقية وهم الذين كُتب لهم البقاء، ورووا لنا أخبار سالفيهم، وأحوال سابقيهم، فتعدَّدت بذلك طرق الإخبار، وكان الشعر شاهداً في كلِّ زمان ومكان. وإنَّ ظهور الإسلام يعدُّ بداية التحول الشامل في حياة المجتمعات عامة والعرب خاصة.

لم يكن الشعر في عصر صدر الإسلام مؤثراً تأثير القرآن، فهو مرجع قويم، أنبأ بما لم ينبئ به الشعر، وبذلك شغل الحيز الأَولَى، والمكانة الأعلى، فكان التأريخ للمجتمعات لا يستند لنصٍّ إلاَّ إن وافق ما جاء به القرآن، وما خالفه فإنَّه حكر على صاحبه.

1- التحولات الكبرى التي مسَّت المجتمع العربي:

1-1- العرب قبل الإسلام:

لا شكَّ أنَّ أغلب المؤرخين للعصر الجاهلي تناولوا زمنيته قبل البعثة النبوية بحوالي قرن ونصف، ثمَّ اكتفوا بها وبخصائصها المستوحاة من حاضر الشعر الذي يوثّق لأخبار تلك الحقبة، وأمَّا ما ضاع منه فقد ضاعت معه فترات من الزمن طالت أم قصرت، وإنَّ متناوليه بدؤوا من نهايته فلم يصلوا إلى بدايته، ونجد أنَّ الجاحظ في حديثه عن الشعر الجاهلي يقول: " أمَّا الشعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السنِّ، أولّ من نَهَجَ سبيله وسهَّل طريقه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له -إلى أن جاء الله بالإسلام- خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام"[1]، وهذه نظرة متفحصة جعلت الجاحظ من السباقين لهذه الرؤية، وإنَّ المتأمل في صنوف الكتب التي تؤرِّخ للعرب قبل الإسلام يجد أنَّ هناك عرباً بائدة كالذين كانوا يقطنون في بطرا وتدمر، وكذلك قوم عاد وثمود وإرم وطسم وجدين وغيرهم ..، وعرب عاربة، ثم عرب مستعربة. "واتّفقوا أو كادوا يتّفقون على تقسيم العرب، من حيث النسب إلى قسمين: قحطانيّة، منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانيّة، منازلهم الأولى في الحجاز، كذلك يقسّم النّسّابون عدنان إلى فرعين كبيرين، ربيعة ومضر"[2].

وفي هذا الصدد سَنُسَلِّطُ الضوء على بحث الشعوب العربية ودولها داخل وخارج الجزيرة العربية في المدَّة القريبة من ظهور الإسلام -أي مائة وخمسين عاماً قبل البعثة-، متجاوزين جذور التاريخ السياسي والحضاري لعرب الجاهلية، حيث نجد أنَّ العرب الجاهليين أَرَّخُوا لهذه الحِقبة بالشعر بقصد أو دون قصد، وكان هذا دأب الرواة شفاهة والقصَّاص، فلا يكاد يخلو بيت من قصيدة إلاَّ وذكروا فيه أيَّامهم، وأحوالهم، وآثار أمجادهم وأمجاد آبائهم وأجدادهم.

[1] - الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، طبعة الحلبي، ج1، ص74.

[2] - الندوي علي أبو الحسن، السيرة النبوية، دار ابن كثير - دمشق، ط12، 1425 هـ، ص112.

ينبغي أن يتفطَّن كل عاقل لبيب أنَّ تسمية عصر ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي ليست اشتقاقاً من الجهل الذي يُعتبر نقيض العلم، إنَّما هي اشتقاق للسلوك أو طريقة العيش، وهذا ما يشير إليه شوقي ضيف إذ يقول[1]:

"وينبغي أن نعرف أن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والترق؛ فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جلَّ وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقي كريم. ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحميَّة والطيش والغضب".

لا ريب في أنَّ الحياة في العصر الجاهلي اختلفت كل الاختلاف عن باقي الأزمنة الأخرى، إذ نجد أنَّ القبيلة تحكمها مجموعة من القوانين، قليلٌ منها يُعنَى به أصحاب النسب الرَّفِيعِ، والجاهِ الممتدّ، والسلطان الحاكم، بل ونجدهم يُقِرُّونَهَا، ويتعاهدون تصويرها في شعرهم ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

ونَشرَبُ إِذَا وَرَدنَا المَاءَ صَفواً *** وَيَشرَبُ غَيرُنَا كَدِراً وَطِينَا

بالرغم من أنَّ قصيدة عمرو بن كلثوم التّغلبي جاءت بعد مناسبة، إلاَّ أنَّ أبياتها جاءت تَصِفُ حَيَاةً اجتماعية يعيشها المجتمع العربي في الجاهلية.

وقد شاعت في بلاد العرب ظاهرة الرقّ، فلم يكد يخلو بيتٌ من عبدٍ حَبشِيٍّ يَقضِي حوائجهم ويشاركهم حروبهم، ويسرج خيلهم ويسوسها، مقابل كسوة تستر عورته، أو كسرة يُغمِدُ بِهَا جُوعَه؛ وأمَّا خلعاء القبائل فهم كُثر، فهناك من سمَّاهم المُقتَرِفين، وهناك من نَعَتَهُم بالصَّعالِيكِ، وقد كان الخالعون "يُعلِنُونَ هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم، وقد يستجير الخليع بقبيلة أخرى فتجيره، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها مثله مثل أبنائها"[2].

[1] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، مصر، د.س، ج1، ص39.

[2] – المصدر نفسه، ص67.

وينبغي أن نفرق بين المخلوع الصعلوك، والمخلوع المستجير، فالأول هو التائه في الصحراء مثل: تأبط شراً، والسليك بن السلكة، والشنفرى، ومنهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد.أمَّا المخلوع المستجير فهو ذلك الذي أقام في قبيلة أجارته، غالباً ما تكون قريبة منه في النَّسب، كما أجار المنجد جسَّاسَ بن مُرَّة حين قتل كليب فطلب القوم رأسه.

ذلك هو المجتمع الجاهلي وتلك هي الحياة الجاهلية، "ونحب أن نخلص من كل ما قدمنا من أمر عرب الجاهلية وبلادهم إلى أنهم لم يكونوا مجتمعًا واحدًا، بل كانوا طبقات اجتماعية مختلفة متباينة تُمثِّلُ المجتمعات الإنسانية التي مَرَّت بها البشرية في تَاريخِهَا الطويل"[1].

وحياة العرب في الجاهلية حافلة وتاريخها وارد في الصُّنوف، وهو وراد في أوثق كتاب ألا وهو القرآن الكريم.

"وحياة العرب في الجاهلية -فيما بدا لنا- بعيدة كل البعد عما يتوهمه بعض الواهمين، أو يقع فيه بعض المتسرعين الذين لا يتوقفون ولا يتثبتون، فيذهبون إلى أن عرب الجاهلية لم يكونوا سوى قوم بدائيين، يحيون حياة بدائية في معزل عن غيرهم من أمم الأرض"[2].

وأمَّا مسألة الدين عند العرب في العصر الجاهلي ففيها أكثر من قول، إلاَّ أنَّ الراجح أنَّ أكثر العرب كانوا وثنيين وهذا ما يؤكده شوقي ضيف بقوله: "كثرة العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهيه كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية "Totemism"؛ إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذه حاميها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وثعلبة. وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان"[3].

[1] - الأسد ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط7، 1988، ص9.

[2] - المرجع نفسه، ص18.

[3] - ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، المرجع السابق نفسه، ص89.

1-2- مكانة الشعر قبل الإسلام:

يعدُّ شعر ما قبل الإسلام (أو الشعر الجاهلي)، من أبرز ما تعاهدته قبائل العرب واعتنت به، و لم يكن ليستوي لولا أن قامت له تلك القائمة، وخُصِّصت له تلك المكانة، وقدِّرت لـه تلك المترلة التي حكمته بمنظور الجودة، وقوَّة التأثير، فإن أردت الطَّرَبَ أطربـك الـوزن وإن رغبت في الحداء أذهلتك القافية وإن أردت المكارم لزمت جميل الشعر وما بدا منه، وإن أردت حجاجاً كفاك هذا الشعر حجاجاً، وأمَّا المعاني فعميقة، والموضوعات دقيقة، والأساليب وجيهة والصياغات محكمة.

"جاء الشعر الجاهلي حافلًا بمختلف العواطف الإنسانية، ومن دراسة هـذا التراث الشعري، نجد أنهم تغنوا بطيب أعراقهم، ومكارم أخلاقهم، وأشـادوا بأبطـالهم وخلدوا أيامهم وأمجادهم، وتعالوا بما أحرزوه من نصر وغنائم، وغالوا في الحديث عـن هزائم أعدائهم، وما نالهم من خسائر في الأرواح والأموال، وما كبلوا فيه من سلاسـل وأغلال"[1].

كما يؤكد ذلك ابن سلاّم الجمحي في قوله: "الشعر في الجاهلية عند العـرب ديـوان علمهم ومنتهى حكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون"[2].

تلك هي مكانة الشعر في العصر الجاهلي، فقد اتخذوه وسيلة للذبِّ والمنافحة، وبـديلا يُغنيهِم عن قسوة الطبيعة، ويروِّح عنهم إذا ما جدَّ خطب، أو عزَّ مطلب، يقيمون له الأسواق ويجعلونه رفيق سفرهم وترحالهم، ومؤنسهم حال الاشتياق، ولسان حالهم إذا ما بكوا علـى طللٍ، و لم يكن لسانهم الذي ينطقون به -فحسب- بل وحجتهم التي يجادلون بها، ومـنطقهم الذي يواجهون به، و لم يمنعهم حب النفس والفخار من أن ينسبوا لذوي الفضل فضلهم، وذكر سابقات غيرهم ومن ذلك ما روي من شعر امرؤ القيس لما قال:

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ المُحيل* لعلَّنا **** نَبكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابن خذام

---

[1] - الجندي علي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة دار التراث، ط1، 1412هـ - 1991م، ص343.

[2] - الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار المعارف، مصر، ط1، ج1، ص24.

* - المُحيل: الذي لا يُولَدُ له.

فلم يتوانَ لحظة في الإشارة إلى أوَّل من وقف على الأطلال وإلاَّ فامرؤ القيس من أوائل من فعلوا ذلك، "ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئًا سوى تلك الإشارة التي قد تدل علـــى أنَّه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال"[1].

وقد أفسح العصر الجاهلي مجالاً للشعر في الأسواق، كسوق عكاظ ومجنة وذي المجاز، وفيها يتنافس الشعراء وتُضرب لِلمُحكِّمِ بينهم قُبَّة من أَدَم.

كان الشعر في العصر الجاهلي يُهذى به، وتدعمه سليقة الشعراء وفطرتهم التي فطـــروا عليها، فكانوا يقولون الشعر ولا يُلقُونَ لَه بالاً، فتأتي القصيدة موزونة مقفَّاةً، مستساغةً متراصَّةَ الأركان، جامعة للموضوعات، متناسبة مع الذوق، مادحة ذامَّة مفاخرة أو راثية .. حتى اعتقد بعضهم أنَّ ذلك الشعر يعود إلى عالم الجنِّ، وممَّا يُروى عند العرب أنَّ هنالك واد سحيق بنجد، اسمه "وادي عبقر" اعتقدوا أنَّ شعراء الجنّ تسكنه، وكانوا يعتقدون أنَّ من أمسى فيه ليلـــة إلاَّ أصبح شاعراً.

ولم يكن دأب كل شعراء العصر الجاهلي أن ينسجوا الشعر على سليقتهم، فمنهم مـــن كان يقول الشعر فينسجه ثمَّ يهذِّبه، ثم ينقِّحه ثم يُنشده على من هُم أقرب إليـــه، ثم يخرجـــه للناس، رصيناً حِصناً منيعاً، وممَّن عُرفوا برصانة شعرهم ممَّن تقلدوا هذا الوصف نجد: زهير بن أبي سلمى "شاعر الحوليات"، أو "شاعر الحكمة"، فقد نسج شعره على منهج التأمّل وقد أشار –قبل الإسلام– إلى مسألة الغيب، ومن ذلك قوله[2]:

وأَعلَمُ مَا فِي اليَومِ والأَمسِ قَبلَهُ **** وَلَكِنَّنِي عَن عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

وإنَّه ممَّن اعتقدوا بوجود الكتاب والبعث والحياة الأخرى التي تستدعي الحساب بعد الموت وفي ذلك يقول[3]:

يُؤخَّر فيُوضَع فِي كِتَاب فَيُدَّخَر **** لِيَومِ الحِسَابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

---

[1] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، ص183.

[2] – ينظر: زهير بن أبي سلمى، أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ (معلقة)، موقع (أدب)، http://www.adab.com.

[3] – المرجع نفسه.

ورغم ما جادت به حولياته، إلاَّ أنَّ هناك من الشعراء من أعابوا فعله هذا، وأشاروا إلى أنَّ شعره قبل أن يُجوّد أو يحبَّر كان أجمل وأفضل منزلةً عندهم، لكنَّ زهيراً دلَّ على مفهوم آخر للشعر، ذلك الشعر الذي يستند إلى فلسفة تاريخية أم دينية أو عقائدية، -ربَّما- لم يَنسُج على مِنوالهِ إلاَّ بعض المتأخرين من أمثال المتنبي والمعري.

مما يميز الشعر الجاهلي هو أنَّه: "غطَّى جميع جوانب الشِّعر الغنائي، فقد قال الشعراء الجاهليون في جميع أنواع العواطف الإنسانية المختلفة، واستطاعوا أن يصوروا النفس البشرية وانفعالاتها في جميع الحالات، مما يدلُّ على قُوَّةِ الإحساسِ، ورِقَّةِ الشعورِ".[1]

1-3- حال العرب بُعَيد ظهور الإسلام

يرتبط ظهور الإسلام بظهور المجتمع الإسلامي وانتهاء مجتمع القبلية التي انحسرت عليها العرب في العصر الجاهلي، وبذلك هبَّت رياح التغيير، فكانت أوَّل لَبِنَةٍ في البناء: "اقْرَأْ باسم ربِّك"[2] {العلق(1)}، " وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا"[3] {آل عمران(103)}، فَبِهَذَا تُبنى المجتمعات، وتقوم الأسس، وتجتمع القلوب، ثمَّ يقوم الدين، وتعلو الحجَّة، وينتصر البرهان.

"كان ظهور الإسلام نهضة عامة تناولت الدين، والسياسة، والأدب، والاجتماع وأخذت تحيل هذه النواحي وما يتَّصل بها، من طور جاهلي عربي إلى صورة إنسانية عامة لا تفرِّق بين جنس وآخر"[4].

كان لابدَّ للبعثة النبوية أولِّ الأمر أن تظهر في قبيلة، ثم القبيلة التي ترتبط معها في النسب، ثمَّ تغزو العرب، إلى أن تفتح العالم أجمع، فقد ظهرت الدعوة النبوية في بيت الرسول

---

[1] - الجندي علي، في تاريخ الأدب الجاهلي، المرجع السابق نفسه، ص444.

[2] - سورة: العلق (1)، قال تعالى: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ".

[3] - سورة: آل عمران، الآية: 103، قال تعالى: "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ".

[4] - أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط2، 1954 م، ص126.

النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بلغت ما بلغت، وهي دعوة عظيمة، مفادها بناء دولة متماسكة الأطراف، مجتمعها واحد، كلمتها واحدة، يشترك فيها الرأي وتقوم فيها الحجة على المخالف.

"لذلك كانت الأوضاع الإسلامية مغايرة للرسوم الجاهلية من وجوه شتى: فالعصبية القبلية صارت شيئاً منكراً، أخذت تحِلُّ محلَّه رابطة قومية أولَّ الأمر، ثمَّ عقيدة دينية عامة، وجدَّ الرسول وخلفاؤه في محاربة الحمية الجاهلية وما يُلابسها ..."[1].

لم يكن العرب مجتمعين قبل الإسلام، ومع ظهور الإسلام اتَّسعت هُوَّة الفُرقة، لتستبين سبل الرشَّاد، وتسلك الأغلبية مسلكاً واحداً، فأصبح هنالك عرب مسلمون، وعرب في التيار المعادي، وبالمقابل عجم -مع العرب المسلمة- قَويت بهم شوكة الإسلام، وقد جاء هذا الدين ليوحِّد، و لم يفضِّل قبيلة عن قبيلة، أو مجتمعاً عن آخر، وإنَّما هم متساوون إن كانوا تحت لواء الدين، وتبقى مسألة الفردية فتلك يعلو شأنها بمقدار التورُّع والانقياد، وقد قال صلى الله عليه وسلَّم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ولا لأَحْمَرَ على أَسْوَدَ ولا لأَسْوَدَ على أَحْمَرَ إلاَّ بالتَّقْوى"[2]، وقال تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ"[3] {الحجرات (10)}، كما جاء بـ: " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ"[4] {الحجرات (13)}، وفي ترتيب هاتين الآيتين علامة على أنَّ أخوَّة المؤمنين تجعل الناس تفد عليهم، فأمرهم بعد ذلك بالتعارف، وبذلك نَبَذَ العنصرية ودفع القبلية، فلا يُخالج المتأمل في التأريخ الإسلامي بعصوره المتعاقبة شكٌّ في أنَّ هذا الدين جاء لينتصر، وأنَّه جاء ليوحِّد، وأنَّه جاء ليوجِّه، وقد بلغ ما بلغ، وفتحت به مشارق الأرض ومغاربها.

---

[1] - المرجع السابق نفسه، ص127.

[2] - الشيباني محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، 2001 م، ج38، ص474.

[3] - سورة: الحجرات، الآية: 10، قال تعالى: " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ".

[4] - سورة: الحجرات، الآية: 13، قال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ".

"وبهذه القيم الروحية جميعاً يقوم الإسلام، فهو ليس عقيدة سماوية وفروضاً دينية فحسب، بل هو أيضاً سلوك خلقي قويم، إذ يدعو إلى طهارة النفس ونبذ كل الفواحش والرذائل.. وقد مضى الصحابة يعبدون الله حقَّ عبادته، مستشعرين ضرباً من القلق على مصيرهم، بعث فيهم الضمير الحي الذي يستشعر صاحبه الخوف من ربِّه في سرِّه وعلنه، كما يستشعر الرجاء في نعيمه ورضوانه"[1].

مع ظهور الرسالة النبوية بدأ زمن الدعوة، وأول من آمن بالله ورسوله، أمُّنا خديجة بنت خويلد وهي من أشراف قريش، ثم آمن به علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وهو ابن عشر سنين، ثمَّ أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– وكانت له منزلة ومكانة في قريش، ثم أسلم: "زَيْدُ بنُ حَارِثَةَ النَّبَوِيُّ، ثُمَّ عُثْمَانُ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ، ثُمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ، ..."[2] وغيرهم– رضي الله عنهم–، وهؤلاء كلهم من أشراف قريش وسؤددها.

ما إن جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته، امتثالاً لقوله عزَّ وجلَّ: " فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ" [الحجر: 94]، حتى أظهروا له العداء، وأنكروا عنه ما جاء به، وأصرّوا على إشراك آلهتهم، وأجمعوا على النَّيل منه. فوقف عمُّه أبو طالب دونه، فعرضوا عليه السيادة والرياسة والسلطان فأبى إلاَّ أن يتمَّ رسالة ربِّه، ثمَّ عرضوا عليه المال والجاه فقال وأجمع بقوله:

"يا عمّ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته"[3].

ثمَّ انتشر هذا الدين ليكون حجَّة الله في الأرض، وكان القرآن دستور المسلمين من قبل ومن بعد، تحدَّى فأعجز، وجمع فأوجز، يعلِّم المسلمين ويهذِّبهم، ويدعو المشركين فيرهبهم، فقد

[1] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، مصر، ط7، ج2، ص15.

[2] – الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2006 م، ج3، ص95.

[3] – النويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423 هـ، ج16، ص200.

تحدَّى كل أشكال البيان، وجلَّ أصناف الإتيان، ولعلَّ أنصف ما قيل فيه ما جاء على لسان الوليد بن المغيرة حين عهدت إليه قريش: " إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلاهُ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلا، وَأَنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ".

رغم أنَّ قريشًا استنكرت ما جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلاَّ أنَّ بعض مكارم الأخلاق حالت دون أن يتحرَّوا كذباً في حَقِّهِ، أو أن يهجموا على الذين جهروا بدعوتهم فيقتلوهم تارة واحدة، فيقال كثرة تعتدي على قلَّة، ولم يتخلوا عن نصرة المستجير، أو قِرى الضَّيفِ، بل حتى الشعراء تحاشوا أن يذكروا محمداً صلى الله عليه وسلَّم بما ليس فيه، بل وتحاشوا ذكر اسمه لألاَّ يذاع اسمه فتؤمن به العرب.

بعد أن توالت الأحداث وكثرت الانقسامات التي آذنت بظهور الفئة التي نصرت الدين، اشتعلت شرارة الحروب، فقويت شوكة الإسلام. "ثمَّ صار العربي بالإسلام أمَّة ودولة لها حكومتها القائمة، ونظامها المقرر، بعدما كانوا قبائل وعشائر متنافرة أو إمارات خاضعة لسلطان الفرس والروم، ...بعدما كانت بدداً في أرجاء البادية"[1].

[1] – أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص2.

2- الشعر في عصر صدر الإسلام:

2-1- موقف الإسلام من الشعر:

اتخذ الإسلام من الشعر ما اتّخذه من غيره، فقد هذَّبه كما هذَّب الأخـــلاق، وجعلـــه وسيلة في الدعوة للوحدة ورصِّ الصفوف، بعد أن كان يدعو إلى العصبية والقبلية، ومن يرجع إلى صنوف الكتب ومصادر الشعر يجد أنَّ الشعر في صدر الإسلام لم يضعف أو يقلّ، فقد جاء منه الكثير، وإنَّ ممَّا تناقلته كتب النقاد والقدماء في محاولة منهم لإثبات ضعف الشعر في صـــدر الإسلام قول بن خلدون: " انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم ونظمه، فأُخرسوا عن ذلك وســـكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً"[1]. لا يمكننا الجزم بذلك، إذ إنَّ المتأمِّل الفطن ستشغله قضية أخرى في حال أطرق لقول بن خلدون -على مكانته-، وهي قضية هجـــاء كفـــار قـــريش للمسلمين -خاصة في الحروب-، وقد لمعت أسماء شعراء كثر منهم: أبي سفيان بن الحـــارث، وهبيرة والمخزومي، وضرار بن الخطاب، ألم يكن هذا سبباً كافياً للردِّ عليهم، أم إنَّ حسَّان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلَّم أُجيز له الشعر وحده؟ فقد أذن له النبي صلى الله عليه وسلم أن يهجو كفار قريش بقوله: "اهجهم وروح القدس معك"، ألم يشجع أمر النبي لحسَّان أن تلتف تلك الطائفة من الشعراء الذين آمنوا فصدق إيمانهم ونبغ لنصرة الدين الحنيف؟ وهـــل مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم للأنصار حين قال: "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم".[2] كل هذه أسئلة ينبغي أن يضعها الناقد نصب عينيه حـــتى لا يتّهم ذلك العصر بالقصور ولا الشعر فيه بالضمور. ولو قال بن خلدون: "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أسلوب القرآن الكريم ونظمه" ثم لم يُتِمَّ قوله: لرأينا أنَّ قصده يتجه في زاوية أخرى، ألا وهي قلَّـــة المتـــأثرين والملتفين حول الشعر -والذين وجدوا القرآن أقوم منه-، وحين أتمَّ فقال: " وســـكتوا عـــن الخوض في النظم والنثر زماناً" هنا نجد أنَّ الأمر يخصُّ جودة الشعر. وقد اســـتدلَّ في موقـــف

[1] - بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1978م، ص581.

[2] - ينظر: ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، المرجع السابق نفسه، ص47.

الإسلام من الشعر أغلب النقاد بل أكثرهم بقوله تعالى: " وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" {سورة الشعراء (224، 225، 226)}[1] فألبسوه بذلك لباس الضعف باعتبار أنَّ كل من دخل في دين الإسلام فَهِم فَهمَهُم للآية، ومنهم من نسي أو تناسى الاستثناء الذي خصَّه عزَّ وجل إذ يقول: " إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ"[2]. وفي هذا يقول الطبري في تفسيره:

ثم استثنى المؤمنين منهم، يعني الشعراء، فقال: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ... ثمَّ أتبع يقول: (وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) قال: هم الأنصار الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثمَّ يقول: وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلما بشعرهم وهجائهم إياهم، وإجابتهم عما هجوهم به.[3]

كما نجد أنَّ شوقي ضيف يقر ذلك فيقول: "ومضى كثيرون ينظمون في هذا العصر لامع الأحداث بل مع أنفسهم وقبائلهم مستضيئين إلى حد كبير بالإسلام وهديه الكريم. فالشعر لم يتوقف و لم يتخلف في هذا العصر وهذا طبيعي لأنَّ من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله في الجاهلية وكانوا قد انحلّت عقدة لسانهم وعبَّروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم، فلمَّا أتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلّوا يصطنعونه وينظمونه"[4].

إذن فقياس موقف الإسلام من الشعر يتعلق بمفهوم الإسلام نفسه، فكما حرَّم الله الربا فقد أحلَّ البيع، وما حرَّم شيئاً إلاَّ وجاء ببديله الذي يغني عنه، وإلاَّ فالنبي صلى الله عليه وسلَّم كان يعجبه كثير من الشعر، وكان يقول: " إن من الشِّعْر لَحِكمَةً فإذا أَلْبَسَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ فالْتَمِسُوهُ فِي الشِّعْرِ فإنه عَرَبِيٌّ"[5]، وكان يتمثَّل في غير موضع بأشعار عبد الله بن

[1] – سورة الشعراء، الآية: 224، 225، 226.

[2] – سورة الشعراء، الآية: 227.

[3] – الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000 م، ج19، ص419.

[4] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، المرجع السابق نفسه، ص42.

[5] – ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414 هـ، ج4، ص410.

رواحة، وقد استنشد الخنساء لمَّا وفدت عليه مع قومها وأسلمت، وكان يعجبه شعرها، ويقول: "هيه يا خناس". وكذلك بأشعار من الجاهلية، كأشعار أميَّة بن أبي الصلت وهو ثقفي جاهلي، وكان كثيراً ما يردد قول لبيد بن ربيعة (وهو جاهلي أيضاً)، وهو ممَّا يستجاد له[1]:

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللّهُ باطِلُ *** وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ

وكان صلى الله عليه وسلَّم يتمثل بقول طرفة بن العبد[2]:

ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً *** ويأتِيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّد

والإسلام لم يتخذ من الشعر موقف النقيض، بل إنَّ الإسلام ميَّز الشعر وجعل له مكانة خاصة، وفي ذلك يقول ضيف: "ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالاً، فإنَّ أحداثه حلَّت من عقد الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه"[3].

إنَّ تعدُّد أنواع وأغراض الشعر يقتضي بالضرورة مسايرة أحد هذه الأغراض لما جاء به الإسلام، فلمَّا نهى الإسلام عن بكاء الميت إلاَّ لما فيه من مضرَّةٍ، فإنَّ هذا ينطبق على شعر الرثاء في بعض مواضعه، ولَّما أن جاء الإسلام ليُطهِّر النفوس ويُبعدها عن أسباب الشهوات، كان حرياً أن يتخذ من شعر المجون موقفاً مخالفاً، ولم يدحض مكارم الأخلاق أو يبدلها، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إنَّما بُعِثت لأتمِّم مكارم الأخلاق".

2-2- جودة الشعر في صدر الإسلام:

لم تخرج القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام عن قالبها العام الذي كانت عليه أيَّام الجاهلية، وإنَّما حدث التغيير في تصورهم للحياة وما يعتري النفس البشرية، فجاء الشعر مهذَّباً موحِّداً بعد أن كان يبثُّ العصبية ويشجع روح القبلية، وقد اتَّخذ القرآن الكريم دليلاً، والنبي صلى الله عليه وسلم قدوة.

"لم يخرجوا جملة في هيئة تأليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرهم في الجاهلية، وإنما آثروا جزالة اللفظ وفخامته ومؤالفته لسابقته ولاحقه دون غرابته كما

[1] – الدينوري بن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـ، د.ط، ج1، ص271.

[2] – المرجع نفسه، ص189.

[3] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، المصدر السابق نفسه، ص46.

آثروا جودة الأسلوب ومتانته وروعة تأثيره ولاسيما أهل النسيب: ولم يطرأ على أوزان الشعر العربي حدث غير ما عرف عنه في الجاهلية وإنما شاع في هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها، واستعمالا في جميع أغراض القصيد، حتى في افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والذم ونحو ذلك"[1].

وكان شعراء هذا العصر ممَّن نبغوا في الشعر قبل الإسلام، ولَّما أن التحقوا بالإسلام لم يفرطوا في الحرف العربي، بل شجعوا على نسجه في أحسن صورة وأقوم لفظ، فليس لنا أن نتهم الشعر في هذا العصر بالقصور أن كان مرجعه القرآن، ودليله الإيمان، وبلاغته تُلجم أفواه المشركين والكفار، وقد كان شعراء هذا العصر من أشعر الناس في الجاهلية، -ولا أقف هنا موقف المشكِّك في آراء نقَّادنا الكبار فلهم حججهم، وإنَّما أقف مع مظلوم قد ظلم ألا وهو الشعر في هذا العصر، انطلاقاً من مقارنات خصَّت نَاقِدَينِ متناقضين. فشعراء بوزن كعب بن زهير، وحسان بن ثابت، والنابغة، والحطيئة، والخنساء. لا ينبغي أن نقف منهم موقف المحايد أو نجعلهم عرضة لشتى أنواع الريب.

كما سبق وأن ذكرنا فإنَّ الشعر في عصر صدر الإسلام تأثَّر بالقرآن الكريم أيَّما تأثّر، فقد استقى من ألفاظه ومعانيه وأساليبه وأغراضه، وكذلك بالنسبة للحديث الشريف، ورأينا أنَّ القصيدة في صدر الإسلام قد اكتست طابعاً أثَّر فيه الدين بشكل أو بآخر؛ وعلِمنا مما سبق أن الشعر في هذا العصر قد نهل من فنّيات مختلفة لا تختلف في جودتها عن الشعر الجاهلي وجزءاً من خصائصه، إلاَّ أنَّ سمو الأغراض في هذا العصر يعدُّ بديلاً عن المقدمات الغزلية التي جاء الخلاص منها صعباً، فهذا كعب بن زهير في بردته لا يجد بُدًّا من مقدمة طللية لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم ينكر عليه رسول الله ما جاء به، حتى إنَّه قالها في مجلسه وجاء مطلعها[2]:

[1] – الهاشمي أحمد بن إبراهيم، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1998، ج2، ص133.

[2] – كعب بن زهير: الديوان، تحقيق: فاعور علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997 م، د.ط، ص60.

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبـــــولُ° *** مُتَيِّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبـــــــولُ

وَمَا سُعَادُ غَداةَ البَيْـــــن إِذْ رَحَلوا *** إِلاّ أَغَنُّ غضيضُ الطّرْفِ مَكْحُولُ

وممَّن نجدهم يشهدون لكعبٍ بالإجادة ابن سلام في طبقاته، إذ يقول[1]: "وكعب شاعر مجيد" قَالَ يَوْم أحد في كلمة:

فَجِئْنَا إِلَى موج من الْبَحْر وَسطه *** أحابيش مِنْهُم حَاسِر وَمُقنعُ

ثَلَاثَة آلَاف وَنَحَـــــنُ نَصِيَّـــــةَ *** ثَلَاثُ مِئِينَ إِن كَثرْنَا وَأَرْبـــعُ

وَكَانُوا سبعمئة؛

فَراحُوا سرَاعًا موجفين كَأَنَّهُمْ *** جِهَام** هراقت مَاءَهُ الرّيح مقلع

ورُحنَا وأُخرَانا تَطَانَا كَأَنَّنَـــا *** أُسودٌ عَلَى لَحمٍ بِبِيشَـــةَ• ظلـــع

ومن جيد الشعر عينية حسان بن ثابت، وفي ذلك يقول صاحب العمـــدة في إعـــراب البردة[2]: "فهو يقارع الخصوم ويلاحيهم، ويتَّخذ مدح الرسول ومدح أهله سنادًا لما عمد إليـــه من المقارعة والملاحاة، وفيها يقول:

أكرمْ بقومٍ رسولُ اللهِ شيعتهمْ، *** إذا تفرّقَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَـــعُ

أهْدَى لَهُمْ مِدَحي قوْمٌ يُؤازِرُهُ ، *** فِيما يُحِبُّ لِسَانٌ حائِكٌ صَنَعُ

° – مَتبُولُ: تَبَلَ الحُبُّ فلاناً: أَسقمَه، وأذهب بعقله.

[1] – الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شـــاكر، دار المـــدني، جـــدة، د.س، ج1، ص220.

** – الجهام: السَّحاب لا ماءَ فيه.

• – بِيشُ وبِيشَةُ: وادٍ بطَرِيقِ اليمامَةِ، مَأْسَدَةٌ، وتُهْمَزُ الثانِيَةُ.

[2] – المؤلف مجهول، العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري، تحقيق: عبد الله أحمد جاحة، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1423 هـــ، ص32.

وكذلك نجد أنَّ أَبا طَالب كان شَاعِرًا[1] جيد الْكَلَام أبرع مَا قَالَ قصيدته الَّتِي صَحَّ فِيهَا النبي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم):

وأَبيَضُ يُستَسقَى الْغَمَام بِوَجْهِهِ ... رَبيعُ الْيَتَامَى عِصمَةٌ لِلأَرَامِلِ

2-3- المؤثرات العامة في شعر صدر الإسلام

يعدُّ الشعر كغيره من الفنون الأدبية الأخرى، يؤثر كما يتأثر، ويتجدد كما تتجدد، إلاَّ أن شموليته تميِّزه بصبغة خاصة، لا تجدها في باقي الآداب الأخرى، ذلك أنَّه يعتبر ديوان العرب ولسانهم الناطق، ولعلّ هذا ما جعله يتأثّر بالمحيط الاجتماعي والسياسي والديني وحتى الثقافي والاقتصادي.

2-3-1- ظهور الدين:

تأثّر الشعر في العصر الإسلامي بصفة عامة وعصر صدر الإسلام بصفة خاصة بالقرآن الكريم، وبألفاظه ومعانيه وأساليبه وأغراضه، ونجد أن قصيدة صدر الإسلام قد اكتست طابعاً دينياً خالصاً؛ حاكى الشعر الجاهلي في بعض خصائصه، وخالفه في كثير ما جاء به، فبعد أن كان الشاعر يقول:

ومَا أَنَا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ *** غوَيْتُ وإنْ تَرشُدْ غزِيَّةُ أَرْشُدِ

أصبح يقول[2]:

أكرمْ بقومٍ رسولُ اللهِ شيعتهمْ، *** إذا تفرّقَتِ الأهْوَاءُ والشِّيَعُ

فبعد غَزيَّة أصبح الشاعر يُكرِمُ براية الإسلام، ويدعوا إلى الالتفاف والتوحد حولها، وبعد أن كان الشاعر في جاهليته يقول:

أَلَا يَا لَهْفَ هِنْدٍ إِثْرَ قَوْمٍ *** هُمُ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا

[1] - ينظر: الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، المرجع السابق نفسه، ج1، ص244.

[2] - حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، تقديم: مهنا عبد. أ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994 م، ص153.

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بِبَنِي أَبِيهِمْ *** وَبِالْأَشْقَيْنِ مَا كَـــانَ الْعِقَابُ
وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءُ جَرِيضـــًا *** وَلَوْ أَدْرَكْنَهُ صَفِـــرَ الْوِطَابُ**
وَقَاهُم جَدُّهُم بِبَنِي أَبِيهِم *** وبالأشقَّينِ مَا كَـــانَ الْعِقَابُ[1]

أصبح يقول:

وَمَتَى تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ فَارْجُ الْغِنَى *** وَإِلَى الّذِي يَهَبُ الرَّغَائِبَ فَارْغَبِ
لَا تَغضَبَنَّ عَلَى امرِئٍ فِي مَالِـــــهِ *** وَعَلَى كَرَائِمِ أَصلِ مَالِكٍ فَاغضَبِ[2]

وفي البيت السَّابق يتجلى وبوضوح تأثّر جميل بالألفاظ الدينية التي لازمت العديد مـــن الشعراء في عصر صدر الإسلام، وذلك لقربهم من النبي "صلى الله عليه وســـلم "، ولانتشـــار موجات الدعوة وحب الورع والزهد والنسك، والمواعظ والتوجيهات التي كثـــرت في هـــذا العصر.

ولا شكَّ أنَّ أغلب شعراء صدر الإسلام قد تجّلت في قصائدهم جوانب متعددة ميزهـــا هذا الطابع الديني والروحي الذي كان له الأثر الواضح في الدعوة وتوحيد كلمة المسلمين، ونبذ نوازغ الخصومة والشقاق. ومن ذلك قول حسان بن ثابت يرد على كفار قـــريش في واقعـــة بدر[3]:

ثمّ وَرَدْنَا وَلَـــمْ نَسْمَعْ لِقَوْلِكُـــمْ *** حَتّى شَرِبْنَا رُوَاءَ غَيْرَ تَصْرِيدِ[o]
مُسْتَعْصِمِينَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْجَـــدِمٍ *** مُسْتَحْكَمٍ مِنْ حِبَالِ اللهِ مَمْدُودِ
فِينَا الرّسُولُ وَفِينَا الْحَقّ نَتْبَعُـــهُ *** حَتّى الْمَمَاتِ وَنَصْرٌ غَيْرُ مَحْدُودِ

** – علباء: عِلْبَاءُ العُنُقِ: عَصَبَةٌ صَفْرَاءُ مُمْتَدَّةٌ فِيهِ؛ جريضا: الجَريض: الغُصَّة؛ الوطاب: الوَطْبُ : سِقاءُ اللَّبن، وهو جلـــدُ الجَذَع فما فوقَه.

[1] – ينظر: الجزري أبو الحسن علي بن أبي الكرم، بن الأثير عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمـــر عبـــد الســـلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1997م، ج1، ص466.

[2] – ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط4، 2001م، ج18، ص441.

[3] – حسان بن ثابت: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص55.

[o] – صَرَّدَ شُرْبَهُ : تَنَاوَلَهُ جُرْعَةً جُرْعَةً.

2-3-2- الفتوح والجهاد:

إنَّ المتأمل في شعر صدر الإسلام يجده لصيقاً بالأحداث، وشعر الحماسة الذي كان في الفتوح الإسلامية كان يحمل جانباً روحياً لم ينتقض أو يتبدل، فبعد أن كان الشاعر يقف عند وصف ناقته التي يركبها، وجواده الذي يمتطيه، وأن يقف متحسراً على الوادي الذي كان قد نزله ذات يوم..، أصبح يتحدى إمبراطوريات لم يكن يراها إلاَّ معجزة، لا تقهر ولا يشقّ لها غبار، حتى أزالها، واستطاع على أنقاضها أن يبني أكبر امبراطورية عرفها التاريخ، إنَّها امبراطورية الإسلام، والغريب في الأمر أنَّ كل هذه الفتوحات تمَّت في ظرف وجيز.

يقول الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي:

"عجيب أن تقتدر أمة ناشئة كأمة العرب المسلمين، تتعاورها الفتن والاضطرابات، وحركات الارتداد والانتقاض من كل جانب، على أن تهدم إمبراطوريتين عظيمتين لتشيد على أنقاضهما إمبراطورية عظيمة، في مدى لا يتجاوز عشر سنوات، تشتمل على العراق والشام جميعًا وتتخطاهما، فتشتمل على فارس ومصر، حتى تبلغ حدودها الصين من الشرق، وتونس من الغرب، وبحر قزوين من الشمال، والسودان من الجنوب"[1].

تعدُّ قصائد الفتوح من بين أكثر القصائد شيوعاً في عصر صدر الإسلام، من ناحيتين: الجودة والكثرة؛ وقد ظهر شعر يحثّ على الجهاد وهذا غالباً يكون قبل المعركة وأحياناً خارج حلبة المعركة، وأمَّا ما قيل أثناء المعركة فقد صنِّف تحت مسمى شعر الحماسة، وهناك نوع ثالث وهو ما قيل بعد أن تضع الحرب أوزارها مثل قول عمرو بن معد يكرب بعد معركة القادسية:

وَالقَادِسِيَةُ حِينَ زَاحَمَ رُستُمَ *** كُنَّا الحُمَاةَ بِهِنَّ كَالأَشطَانِ*

[1] – القاضي النعمان عبد المتعال، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 2005، ص27.

* – الشَّطَنُ: الحَبْلُ الطويل يُسْتقَى به من البئر، أو تُشدُّ الدابةُ.

الضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبيَضٍ مُخــذَمِ** *** وَالطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ الأَضغَــانِ
وَمَضَى رَبِيعٌ بِالجُنُودِ مُشرِقًــــا *** يَنوِي الجِهَادَ وطَاعَةَ الرَّحمَــنِ[1]

وقد رافق الشعر الفتوح الإسلامية في جميع أرجاء الأرض، ومما نجده شـــارف علـــى الاندثار في هذا العصر الاعتداد بالنفس والقبيلة، وقد كان الشاعر يؤيـــد لحمـــة المســـلمين، ويشجعهم ويقوي من عزائمهم، ويدعوهم إلى الوحدة، وقد كان الشاعر يبلي بـــلاءً حســـناً فعندما تدور رحى المعارك. فهذا القعقاع بن عمرو التميمي يتغنى بالنصر وهو أشدهم بأســـاً قائلاً:

فَنَحنُ وَطَئنَا بِالكَوَاظِمِ هُرمُزًا *** وَبِالثّنَي قَرنَي قَارِنٍ بِالجَوَارِفِ°

وكذلك يفعل الأسود بن قطبة، فيُعيِّر عرب القبائل الذين انضموا للفرس بسبي المسلمين نساءهم وافتضاحهم فيقول[2]:

لعمرو أَبِي بُجَير حَيثُ صَارُوا *** وَمَن آدَاهُم يَومَ الثَنِـــــيِّ
لَقَد لَاقَت سُرَاتُهُمُ افتِضَاحَا *** وَفُتنَا بِالنِّسَاءِ عَلَى المُطِـــيِّ
ألا مَا لِلرِّجَالِ فَإِنَّ جَهـــلاً *** بِكم أَن تَفعَلُوا فِعلَ الصَّبِيِّ

****

2-3-3- الحاجة للمُحاجَّة:

المُحاجَّة من الحِجاج، والحُجَّة: البُرْهان؛ وَقِيلَ: الحُجَّة مَا دُوفِعَ بِـــهِ الْخَصْـــمُ؛ وَقَـــالَ الأَزهري: الحُجَّة الْوَجْهُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الظَّفَرُ عِنْدَ الْخُصُومَةِ. وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجاجٌ أَي جَـــدِلٌ.

** – المِخْذَمُ: السيفُ القاطع.
[1] – ينظر: المرجع السابق نفسه، ص196.
° – الثِّنيِّ: الثِّني من الحبل: ما تعوَّج منه.
[2] – ينظر: المرجع السابق نفسه، ص112.

والتَّحاجُّ: التَّخاصُم؛ وَجَمْعُ الحُجَّةِ: حُجَجٌ وحِجاجٌ... وَمِنْهُ حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ: فَجَعَلْتُ أَحُجُّ خَصْمِي أَي أَغْلِبُه بالحُجَّة[1].

والمحاجَّة هي المجابهة، والحجاج هو فنٌّ لم يتخلى عنه الشعراء على مَرِّ العصور، يعملون به ويفتعلونه للرد على خصومهم، وقد استخدمه شعراء صدر الإسلام –وكانت حاجتهم ملحَّة إليه– يردُّون به على كفار قريش والمشركين وشعرائهم الذين سعوا لتشويه صورة الإسلام ورغبوا في وأد الدعوة إلى الله، فانتشر هذا النوع من الشعر بين شعراء الإسلام من جهة وخصومهم في التيار المعادي من جهة أخرى، ومن الشعراء الذين باروا الكفار وجادلوهم، وأقاموا عليهم الحجة: حسّان بن ثابت ومن أقواله في ذلك[2]؛

فَغَادَرنَا أَبَا جَهلٍ صَرِيعـــاً *** وعُتبَةَ قَدْ تَركنَا بِالجُبُـــوبِ

يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللهِ، لَمَّـــا *** قَذَفنَاهُمْ كَبَاكِبَ فِي القَلِيـــبِ*

ألَمْ تَجِدُو حديثي كانَ حَقًّا؟، *** وأمرُ اللهِ يأخذُ بالقُلُـــوبِ

فَما نَطَقُوا، ولَو نَطَقوا لَقالوا: *** صَدَقْتَ وكُنْتَ ذا رَأيٍ مُصِيبِ

افتتح حسَّان قصيدته يسرد فيها واقعات الحروب، وكيف كان بأس المسلمين على المشركين شديد، وكأنَّه يخاطب قريش مباشرة دون حجاب، ثم نجده يتبع فيقول: ألم تجدوا حديثي كان حقًّا؟ وهنا تظهر قوة الحِجاج، إذ قال في البيت التالي:

فَما نَطَقُوا، ولَو نَطَقوا لَقالوا: *** صَدَقْتَ وكُنْتَ ذا رَأيٍ مُصِيبِ

أي إنَّه مُلزمهم حجّته، وفي قوله، فما نطقوا، إشارة إلى أنَّهم يعلمون الحق وينأون عنه، وبعد العلم ينتهي الجدل.

[1] – ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، المرجع السابق نفسه، ج2، ص228.

[2] – حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص25.

* – كباكب: الكَبْكَبُ: الجماعةُ من الناس؛ القَلِيبُ: البئرُ، وهي وَقَفَ عَلَى قَلِيبِ بَدْرٍ.

* الفصل الثاني:

شعر صدر الإسلام خصائصه وأغراضه

1- خصائص شعر صدر الإسلام:

1-1- من حيث الموضوعات:

1-2- من حيث الألفاظ:

1-3- من حيث الخيال والتصوير

2- أغراض شعر صدر الإسلام

2-1- شعر المديح (البديعيات)

2-2- الفخر والحماسة

2-3- الهجاء

2-4- الرثاء

2-5- النقائض

*** تمهيد:**

يعدُّ الشعر من أبرز الفنون الأدبية التي حظيت باهتمام الدارسين للأدب واللغة؛ ذلك أن له القدرة على تصوير خلجات النفس وما يحيط بها تصويراً فنيًّا دقيقاً، والشعر كما هو معروف عند القدماء "هو كلام موزون مقفى يدل على معنى "[1]، وهو عند ابن طباطبا: "كلام منظوم بان عن المنثور"[2]، وقد عرفت للشعر قيم "يحملها وحده، وتعدُّ من سماته المميزة، وهي قيم فنّية نصَّ عليها بعض الدراسين أمثال الجاحظ في قوله: "الشعر شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا".[3]

فالشعر-إذن- خاضع في كلّ الأحوال إلى قواعد تحكمه، وإلى شروط تُلزمه، وإنَّه في عصر صدر الإسلام قد كان خاضعاً لمثلها. فرغم أنَّه تحررَّ من دوائره الضيِّقة التي لازمته في الجاهلية، إلاَّ أنَّه حافظ على قالبه العام.

وكلّ هذه الميزات كانت عاملاً أساس في إنارة الطريق نحو التجديد في مضامين الشعر، وقد جاءت على عدَّة مستويات يمكن أن نُجملها في: الخصائص والأغراض، فأمَّا الخصائص فقد مسَّت الموضوعات والألفاظ، إلى جانب الخيال والتصوير؛ وأما الأغراض فقد تعدَّدت؛ منها ما كان موجوداً في العصور السابقة وطرأ عليه تغيير في الشكل أو المضمون أو كلاهما (كشعر الهجاء، والفخر، وحتى الرثاء) ومنها ما انفردت به هذه الفترة دون سابقتها (كشعر الفتوح، وشعر المديح النبوي، المناجاة، النقائض ...)، وأمَّا قضاياه فتمثلت في موقف الإسلام من الشعر، وقد حُملت على عدَّة أوجه، وهذا ما سنتناوله -في هذا الفصل- بالشرح والتفصيل-.

[1] - ينظر: الخفاجي أبو محمد بن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982 م، ص 286.

[2] - طباطبا محمد بن أحمد، عيار الشعر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 5.

[3] - ينظر: حسين علي محمد حسين، التحرير الأدبي، مكتبة العبيكان، دون بلد، ط5، 2004 م، ص49.

1- خصائص شعر صدر الإسلام:

1-1- من حيث الموضوعات:

طرق شعراء صدر الإسلام العديد من الموضوعات التي نجدها سايرت أحداثاً متسارعة، وصوَّرت لنا جوانب متعدِّدة من الحياة تحت كنف الإسلام، تَنبذ الفرقة وتُجانب القبلية، وتدعو إلى التمسُّك بهدي النبي -صلى الله عليه وسلَّم- والالتفاف حوله، ومن أمثلة ذلك قول حسَّان بن ثابت[1]:

دَعْ عنْكَ شَعثاءَ، إذ كانتْ مودّتُها نَزْراً، وشرُّ وِصَالِ الوَاصِلِ النَّزَرُ*

وأتِ الرَّسُولَ فَقُلْ يَا خيرَ مُؤتَمَـنٍ لِمُؤمِنِينَ، إِذَا مَا عَدَلَ البَشَـرُ

ومن الموضوعات التي نجدها تكررت في شعر صدر الإسلام الدعوة إلى الإسلام، وتضمين مفردات القرآن، كقول الشاعر[2]:

أُوصِيكُمُ بِتُقَى الإِلهِ فَإِنَّهُ *** يُعْطِي الرَّغائِبِ مَنْ يَشَاءُ ويَمْنَعُ

وبِبِرِّ وَالِدِكُمْ وطاعةِ أَمرِهِ *** إِنَّ الأَبَـرَّ مِن البَنِينِ الأَطْوَعُ

كما اشتهر هذا العصر بكثرة شعر المناجاة، على نحو قول النمر بن تولب[3]:

أَعِذنِـي رَبِّ مِن حَصرٍ وَعَيٍّ *** وَمِن نَفسٍ أُعَالِجُهَا عِـلاَجَا

وَمِن حَاجَاتِ نَفسِي فَاعصِمنِيّ *** فَإِنَّ لِمُضمِراتِ النَّفس حَاجَا

وأصبح مصطلح الجهاد شائعاً لدى أغلب شعراء العصر فتناولوه بكثرة في ظلّ الصراعات الدينية والعقائدية، على نحو قول حسَّان بن ثابت:

---

[1] - حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، تقديم: مهنا عبد. أ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994 م، ص120.

* - شعثاء: أَشْعَثُ الشَّعْرِ: مُغْبَرٌّ ، مُتَلَبِّدٌ؛ النزر: نَزَّرَ العَطَاءَ: قَلَّلَهُ.

[2] - ينظر: الضبي المفضل بن محمد، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، 1984، ص146.

[3] - النمري أبو عمر يوسف القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.س، ج1، ص7.

وجَاهَدوا في سبيل الله واعترفـــوا *** للنَّائبات فما خاموا وما ضَجِروا[o]

والنَّـــاس ألـــبٌ علينا ثمَّ ليس لنا *** إلاَّ السيوف وأطراف القنا وزرُ[1]

كما اتَّخذت الموضوعات شكلاً أدبياً يقوم على الجدل والمناظرة، ويعتمد اعتماداً كبيراً على الحجاج العقلي في مناقشة الخصم ودحض آرائه والانتصار للدين والدفاع عنه والاعتـــداد به، كقول حسَّان[2]:

وَكَمْ رَدَدْنا بِبَدْرٍ، دونَ ما طَلَبُـــوا *** أهلَ النفاقِ، وفينا أُنزِلَ الظَّفَـــرُ

وَنحنُ جُندُكَ يوْمَ النَّعْفِ من أُحُدٍ *** إِذْ حزبتْ بطراً أشياعها مضـــرُ[**]

فما وَنَيْنَا، وما خِمْنا، وما خَبَرُوا *** مِنَّا عثاراً، وجلُّ القومِ قد عثروا

ومن الموضوعات التي طرقها شعراء هذا العصر الدعوة إلى مكارم الأخلاق وشمائلـــها، والتَّناصح بالحق والتناصر، والحث على الاستقامة، والتحذير ممَّا بعد الموت، ومن ذلـــك قـــول كعب بن زهير حين شرع في دعوة قومه[3]:

رَحلتُ إِلَى قَومِي لِأَدعُو جُلَّهُـــم *** إلى أمر حزمٍ أحْكمتْهُ الجوامعُ

سأدعوهُمُ جَهْدي إلى البرِّ والتُّقَى *** وأمرِ العُلاَ ماشا يعتْني الأصابعُ

فَكُونُوا جَمِيعًا ما استطعتم فَإِنَّـــهُ *** سَيَلبَسكم ثوب من الله واسعُ

وفي غير هذا الموضع يقول[4]:

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ منْ شَيءٍ لأعْجَبَنِي *** سَعْيُ الفَتَى وهو مُخْبُوءٌ له القدَرُ

يَسْعَى الفتى لأمورٍ لَيْسَ مُدْرِكُهـــا *** والنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشـــــرُ

والمرءُ مَا عَاشَ مَمْدُودٌ لَهُ أَمَـــــلٌ *** لا تَنْتَهِي العَيْنُ حَتَّى يَنْتَهِي الأَثَـــرُ

---

[o] – خاموا: خام عن القتال، وفيه: جَبُن وتراجَعَ.

[1] – حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص120.

[2] – المصدر نفسه، ص121.

[**] – يوم النعف: النَّعْفُ من الأَرض: المكان المرتفع في اعتراض، وقيل: هو ما انْحَدَر عن السَّفْح وكان فيه صُعود وهُبوط.

[3] – كعب بن زهير: الديوان، تحقيق: فاعور علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1997 م، د.ط، ص42.

[4] – الدينوري بن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـــ، د.ط، ج1، ص152.

وفي لاميته يقول:

كلُّ ابنِ أُنثَى وَإِن طَالَت سَلاَمَتُهُ *** يَوماً عَلَى آلَةٍ حَدبَاءَ مَحمُولُ

ويقول النمر بن تولب:

إنِّي وَجَدتُ الأَمرَ أَرشَدَهُ *** تَقوَى الإِلَهِ وَشَرُّهُ الإِثمُ

1-2- من حيث الألفاظ:

رغم أنَّ شعر صدر الإسلام -إذا ما قارناه بالشعر الجاهلي- لم يتغير كثيراً في شكله وقالبه وبنائية قصيدته، إلاَّ أنَّها طالته العديد من التغيُّرات التي نجدها مسَّت الألفاظ بشكل كبير، ويعود الفضل في ذلك إلى القرآن الكريم بالدرجة الأولى، ثمَّ إلى وحي النبوة بالدرجة الثانية، ويقول في ذلك أحمد حسن الزيات:

"... فأمَّا تأثيره في اللغة وأدبها —وهو ما يعنينا الآن ذكره- فبأنَّه خالط من القوم قلوباً قاسية فألانها، وطباعاً جافية فأرقَّها، وأحلاماً طافية فأقرَّها، فكسب ذلك اللغة عذوبة في اللفظ، ورقَّة في التركيب، ودقَّة في الأداء، وقوَّة في المنطق، وثروة في المعاني، ووسَّع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصَّلاة والزَّكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر .. الخ"[1].

وكذلك نجدهم استخدموا ألفاظاً أخرى عرف كثير منها منذ الجاهلية: " قد أخذوا يستعملون في أشعارهم أسماء الله الحسنى من تلك التي كانت معروفة في الجاهلية، نحو: الله، اللهم، ربِّ، الرحمن، استعمالاً إسلاميا"[2]. وقد ظهرت صورة الإنسان المؤمن في كثير الشعر وقليله، ومن الأمثلة على ذلك قول حسَّان بن ثابت[3]:

لقد خَابَ قوم غَابَ عَنْهُم نَبيّهم *** وَقدس من يسرى إِلَيْهِم ويغتدي

تَرَحَّل عَن قَومٍ فَضُلَت عُقُولُهُمْ *** وَحُلَّ عَلَى قَومٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ

[1] - الزيات أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، الفجالة- القاهرة، د .ط، د.ت، ص90.

[2] - فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1981، ص258.

[3] - حسان بن ثابت: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص59-60.

هدَاهُم بِهِ بعد الضَّلَالَة رَبهـــــم *** وأرشدهم من يتبع الْحق يرشد

وَهل يَسْتَوِي ضلال قوم تسفهوا *** عمايتهم هاد بِهِ كل مهتـــدي

وظَّف الشاعر الكلمات التالية: نبي، هداهم، مهتدي، ربّهم، الضلالة ... رغم أنَّ الكلمات قد استخدمها كثير من شعراء العصر الجاهلي، إلاَّ أنَّ الطريقة تختلف، والمعـــنى أصبح يتَّصِل بروح المؤمن، هذا ونجده وظَّف في كثير شعره ما يدلُّ على تشبعه بالثقافـــة الإسلامية، ومن ذلك قوله:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّـــــدًا *** رَسُولُ الَّذِي فَوق السَّمَوَات مـــن عل

وَأَن أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَيْهِـــــمَا *** لَهُ عَمَلٌ فِـــي دِينـــــــــهِ مُتَقَبَّـــلِ

وَأَنَّ الَّتِي بِالسُّدِّ مِنْ بَطْنِ نخلـــــةٍ *** وَمَنْ دَانَهَا فِلٌّ مِنَ الْخَيْرِ مَعْـــــــزِلِ

وَأَن الَّذِي عادى الْيَهُود ابْن مَرْيَم *** رَسُول أَتَى من عِنْد ذِي الْعَرْش مُرْسل

في الكلمات: شهدت، رسول، دين، ذي العرش، إيحاء بتأثُّره بألفاظ القرآن تأثُّراً جليًّا واضحاً، وإذا حاولنا تدقيق النَّظر في قوله: "من عند ذي العرش مرسل"، فهي مفـــردة كثـــر تكرارها في القرآن كقوله تعالى: " ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ"[1] {الـــبروج (15)} وقولـــه: "وَتَـــرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ"[2] {الزمر (75)}، وقوله: " رَفِيعُ الـــدَّرَجَاتِ ذُو الْعَـــرْشِ"[3] {غافر(15)}. فاستعماله ما يدلُّ على الله في غير موضع دليل على أنَّ الدين قد مازج روحـــه وخالطها، بل وتمكّن منها.

[1] – سورة البروج، الآية: 15.

[2] – سورة الزمر، الآية: 75، قال تعالى: "وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

[3] – سورة غافر، الآية: 15، قوله تعالى: " رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ".

ومن دليل تأثُّرهم بالقرآن وبقصصه، نجدهم يضمِّنون في شعرهم آيات من كتاب الله، على نحو قول كعب بن مالك[1]:

فَإِن يَكُ مُوسَى كَلَّمَ اللهَ جَهرَةً *** عَلَى جَبَلِ الطُّورِ المَنِيفِ المُعَظَّـــم

فَقَد كَلَّمَ اللهَ النَّبِيَ مَحَمَـــــدَا ، *** عَلَى المَوضِعِ الأَعلَى الرَّفِيعِ المُسوّم

وحريٌّ بنا أن ندلَّ على أنَّ الشاعر في هذين البيتين قد وظَّـــف حـــدثين، ودلَّ علـــى عصرين، واستعمل كلمة من وحي القرآن وهي: "فإن يك"، كقوله تعالى: " فَإِن يَتُوبُواْ يَـــكُ خَيْرًا لَّهُمْ"[2] {التوبة (74)}.

1-3- من حيث الخيال والتصوير:

لقد اعتمد شعراء صدر الإسلام في قصائدهم على الصور البيانية المتمثلة في التشبيهات والاستعارات بأنواعها وكذلك الكناية، وقد وظّفوا الخيال الذي يعدُّ صورة لِما يجول في خاطرِ الشاعر. وقد كان تصويرهم هذا أقرب إلى التصوير الفني في القصيدة الجاهلية، وهذا ما يدلُّ في جزئيه على الخضرمة، وأكثر صورهم قائمة على التشبيه، ومن أشعر شعراء هذا العصر حسَّان بن ثابت، ومن التشبيهات التي وظَّفها، قوله[3]:

وَكَأَنّ أَصْحَابَ النَّبِيّ عَشِيَّةً *** بُدْنٌ تُنَحَّرُ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ

أَبْكِي أَبَا عَمْرٍو لِحُسْنِ بَلائِهِ *** أَمْسَى مُقِيمًا فِي بَقِيعِ الْغَرْقَـــدِ*

وقد شبَّه هنا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلَّم بالبُدنُ وهي التي تُـــذبح في الهـــدْي والأَضاحي، وهذين البيتين جزء من قصيدة قالها حسَّان بن ثابت بعد مقتل عثمان بن عفـــان رضي الله عنه يرثيه بها، ونلاحظ أنَّ الشاعر حسَّان قد ضمَّن خاصية من خاصيات الصـــحابة،

---

[1] – كعب بن مالك: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص95.

[2] – سورة التوبة، الآية: 74، قال تعالى: " يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَـــذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ".

[3] – حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص68.

* – الغرقد: غَرْقَدُ: شجرٌ عِظامٌ، أو هي العَوْسَجُ إذا عَظُمَ، واحِدُهُ: غَرْقَدَةٌ، وبها سَمَّوْا.

وهي العِظَم وطيب الأثر (وتشير إليهما كلمة بُدنٌ فهي ما يتقرب به إلى الله فيتقبله). ويمكننا إدراج هذا التشبيه ضمن التشبيهات التمثيلية التي تصوِّر لنا مشهداً يمكن أن نستوحي منه الطريقة البشعة في قتل الصحابة أخيار هذه الأمة.

ونلاحظ في شعر حسَّان في غير موضع أنَّه يحاول أن يصل إلى الصورة الكاملة والتي يشكِّلها في خياله ثم يجعل لها رسما في خيال غيره، كما نجده يصور لنا تصويراً دقيقاً أحوال النبي صلى الله عليه وسلَّم وإثبات صفاته في شعره، ومن ذلك قوله[1]:

كَشَّافُ مَكرُبَةٍ مِطعَامُ مَسغَبَةٍ *** وَهَّابُ عَانِيَةَ وَجَنَاءُ شِملَالِ*

عَفٌّ مَكَاسِبُهُ جَزلٌ مَوَاهِبُهُ *** خَيرَ البَرِيَّةِ سَمحٌ غَيرُ نَكَّالِ

[1] – السيوطي جلال الدين، المحاضرات والمحاورات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1424 هـ، ص61.

* – مسغبة: المَسْغَبَةُ : سَغَب، مجاعَة، جوع مع تعب؛ عانية: العانية مؤنث عانٍ وهو: الذليل الأسير؛ شملال: السريع الخفيف.

2- أغراض شعر صدر الإسلام:

ظهرت أغراض كثيرة في شعر صدر الإسلام مسَّت العديد من أركانه، وأضفت عليه رونقاً بهيًّا، وأسلوباً نديًّا، وأثَّرت فيه تأثيراً جليًّا، ففي هذا الجزء نتطرق إلى أهم الأغراض التي نشأت أو تطورت في عصر صدر الإسلام وهي:

2-1- شعر المديح (البديعيات):

المديح في اللغة من مدح: المَدْح: نَقِيضُ الهجاءِ وَهُوَ حُسْنُ الثناءِ؛ يُقَالُ: مَدَحْتُه مِدْحَةً وَاحِدَةً ومَدَحَه يَمْدَحُه مَدْحاً ومِدْحَةً، هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ، وَالصَّحِيحُ أَن المَدْحَ الْمَصْدَرُ، والمِدْحَةَ الِاسْمُ، وَالْجَمْعُ مِدَحٌ، وَهُوَ المَدِيحُ وَالْجَمْعُ المَدائحُ والأَماديح، الأَخيرة عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَنَظِيرُهُ حَديثٌ وأَحاديثُ؛ ومَدَح الشاعرُ وامْتَدَح. وتَمَدَّح الرَّجُلُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ: تَشَبَّع وَافْتَخَرَ[1].

و المديح هو ما يُمدح به من القول، وهو غرض من أغراض الشِّعر، تخصَّص في إنشاد المدائح النَّبويّة، نجد أنَّه فطريٌّ في الإنسان، وقد تجّلى عند شعراء صدر الإسلام في حّلته الجديدة، فبينما كان في الجاهلية يتغنَّى بالأجداد والأمجاد، والنسب، فقد اختلف كليًّا عن ذلك، فقد أصبح يتغنَّى بقومية الإسلام ويتمدَّح بها، وبتوحد كلمة الحق، وهذا دليل واضح على تأثر الشعراء بالإسلام، وبمنهج النبوّة، فالشعر صار -في أغلبه- إسلامياً تتجلى فيه معالم الأخوة، وتعاليم الدين الحنيف، فهذا حسَّان بن ثابت الأنصاري الخزرجي الذي كان لسانه سيفاً حادًّا على الأوس في الجاهلية، أصبح لسان الراية الإسلامية التي جمعت الأوس والخزرج في منهج واحد، بل وتحت سقف واحد، -نعم، إنَّه تأثير الإسلام.

ومن أمثلة المديح في عصر صدر الإسلام، ما امتدح به كعب بن زهير رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بعد أن أهدر دمه، والتي حملت في أوجهها أسمى معاني المدح، رغم أنَّ كعباً قالها وهو حديث عهد بإسلام، وقد جاء في مطلعها[2]:

---

[1] - ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414 هـ، ج2، ص589-590.

[2] - كعب بن زهير: الديوان، المرجع السابق، ص60.

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبي اليَوْمَ مَتْبـــــولُ *** مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبـــــولُ
وَمَا سُعَادُ غَداةَ البَيْـــــن إِذْ رَحَلوا *** إِلاّ أَغَنُّ غضيضُ الطّرْفِ مَكْحُولُ*
هَيْفاءُ مُقْبِلَةً عَجْـــــزاءُ مُدْبِـــــرَةً *** لا يُشْتَكى قِصَرٌ مِنها ولا طُـــولُº
تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابْتَسَمَتْ *** كأَنَّهُ مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْلُـــــولُ

****

2-2- الفخر والحماسة: غرض من أغراض الشعر، شاعت في شعر صدر الإسلام، وكثر تداولها بين الشعراء، ولا عجب في ذلك، إذ إنَّ الفتوح الإسلامية كثرت وتواترت بداية من عصر النبوّة إلى عصر الخلفاء وما يليه من تعاقبات، وممَّا يشدُّ انتباهنا في هذا الغرض اختلافه عمَّا عُهد عند العرب في الجاهلية، إذ كان يغلب على شعر الحماسة والفخر طابع العصبية والقبلية، ومن القصائد التي يتواتر فيها الفخر بالنصر ويغلب عليها طابع الحماسة، قصائد حسَّان بن ثابت، ومن ذلك قوله[1]:

أَتَينَا فَارسَ في دارهـــــم، *** فَتَنَاهَوا بَعدَ إِعصَامٍ بِقُـــرْ•
ثمّ صَاحَا: يالَ غَسّانَ اصْبِرُوا *** إنّهُ يوْمُ مَصَالِيتَ صُبُـــرْº
بضرابٍ تأذنُ الجنُّ لـــهُ، *** وطعانٍ مثلِ أفواهِ الفقـــرْ

وكذلك قصائد كعب بن مالك ومنها قوله[2]:

قَضَينَا مِن تِهَامَةَ كل ريبٍ *** وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نُخَبِّرُهَا وَلَو نَطَقَت لَقَالَت *** قَوَاطِعُهُنَّ دُوساً أَو ثَقِيفَا

---

* – أغنُّ: أغَنَّ الغُصْنَ: جَعَلَهُ ناضِراً؛ غضيض الطرف: مسترخي الأجفان.

º – هيفاء: قامة هيفاءُ: ممشوقة رشيقة.

[1] – حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص124.

• – بقرْ: وقعَتْ بقُرٍّ: صارت الشدّة في قرارها.

º – مصاليت: المِصْلاَةُ: شَرَكٌ أَوْ فَخٌّ يُنْصَبُ لِلصَّيْدِ.

[2] – ينظر: البيهقي إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، مطبعة السعادة، مصر، ط1، د.س، ج1، ص186.

وأمَّا الحماسة في شعر عبد الله بن رواحة فلا تكاد تفارق، ومن ذلك ما ورد في أرجوزته[1]:

تَاللهِ لَولاَ اللهِ مَا اهتَدَينَا *** وَلاَ تَصَدَّقنَا وَلاَ صَلَّينَا
فَأَنزِلَنّ سَكينةً عَلَينَا *** وَثَبِّت الأَقدَامَ إِن لاَقَينَا
وَالمُشرِكُونَ قَد بَغَوا عَلَينَا *** إِذَا أَرَادُوا فِتنَةً أَبَينَا
****

2-3- الهجاء: "من هجا: هَجَاه يَهْجُوه هَجْواً وهِجاء وتَهْجَاء، مدود: شَتَمَهُ بالشِّعر، وَهُوَ خِلَافُ المَدْح. قَالَ اللَّيْثُ: هُوَ الوَقِيعةُ فِي الأَشْعار"[2]. وهو غرض من أغراض شعر صدر الإسلام، ومع أنَّ الهجاء كان حاضراً بقوة في الشعر الجاهلي، إلاَّ أنَّه في شعر صدر الإسلام طرأت عليه العديد من أوجه التغيير، حيث نجده تخلَّص من نابيته، واجتنب فيه الشعراء الأوصاف القاذعه -بأمرِ رسول الله-، وصار مهذَّبا في ألفاظه إلى أبعد الحدود، وقد اشتدَّت حاجة المسلمين إليه للرد على الكفَّار وبذلك لم يُجعل حكراً على العصر الجاهلي، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم الأنصار للمنافحة عن دين الله، بل ورغَّب في مهاجاة الكفار، ومن الشعراء الذين برزوا: كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة.

وقد انتحى الهجاء في صدر الإسلام منحًى جديداً، فأقرَّ هجاءً فردياً وهجاءً جماعياً، وأمَّا حسَّان بن ثابت فقد باركه رسول الله صلى الله عليه وسلَّم واتَّخذه سيفاً قاطعاً، سلَّطه الله على المشركين، ومن أشعاره التي يُقِرُّ بَأَنَّهُ دائب في هجاء المشركين قوله[3]:

لَنَا فِي كُلِّ يَومٍ مِن مَعَدٍّ *** سِبابُ أَو قِتَال أو هِجَاءُ
فَنَحكُم بِالقَوَافِي مَن هَجَانَا *** ونَضرِبُ حِينَ تَختَلِطُ الدِّمَاءُ

[1] - ينظر: المرجع السابق نفسه.
[2] - ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، المرجع السابق نفسه، ج15، ص353.
[3] - حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص20.

ومن الأشكال التي اتَّخذها حسَّان: الهجاء الفردي، ومن ذلك ردّه على أبـــا ســـفيان بقوله[1]:

هَجَوتَ محمَّدًا فَأَجَبتُ عنهُ *** وعِندَ الله فِي ذاك الجـــزاءُ
أَتَهجُوهُ ولَستَ لَهُ بكـــفءٍ *** فَشَرُّكُمَا لخِيرِكُمَا الفِـــداءُ

وأمَّا الهجاء الجماعي فمن أمثلته[2]؛

أَقَمْنَا لكُمْ طَعْناً مُبيراً، مُنَكِّلاً، *** وحزناكمُ بالضربِ من كلّ جانبِ
ولولا لواءُ الحارثيةِ أصبحوا *** يُباعونَ في الأسواقِ بَيْعَ الجَلائِـــبِ

****

2-4- الرثاء: رَثَى فُلَانٌ فُلَانًا يَرْثِيهِ رَثْياً ومَرْثِيَةً إذا بكاهُ بَعْدَ مَوته. قَالَ: فإن مدَحَه بَعْدَ مَوْتِهِ قِيلَ رَثَّاهُ يُرَثِّيه تَرْثِيَةً. ورَثَيْت الميّتَ رَثْياً ورِثَاءً ومَرْثَاةً ومَرْثِيَةً ورَثَّيْته: مَدَحْتـــه بَعْـــدَ الْمَـــوْتِ وبَكَيْته[3]، وأمَّا كغرض شعري فالرِّثاء لم يستغني عنه شعراء صدر الإسلام، خاصة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فتلك مصيبة لها وزنها، فكلُّ المصيبات تهون مع الدهر، إلاَّ مصيبة فقـــد رسول الله فإنَّها رزيّة ما بعدها رزيّة. وهو "بارز في التراث العربي بروز حتمية الموت، وفرصة للتعبير عن الشعور الصادق الذي يفيض حسرة ونشيجاً .... والحق أنَّ الرثاء فنٌّ وجداني يقوم على وصف الميِّت، وذكر محاسنه في الحياة ويتميَّز بشرف المعاني والجمع بين الحكمة والتأمّل"[4]، ومن القصائد التي جاءت في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم نجد مرثية كعب بن مالك[5]:

ألا انْعِي النّبيَّ إلى العَالَمِينَا، *** جَمِيعاً ولاَسِيَّما المُسْلِمينـــا

---

[1] – المرجع السابق نفسه، ص20.

[2] – المرجع نفسه، ص29.

[3] – ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، المرجع السابق نفسه، ج14، ص309.

[4] – حاجي أحمد، المراثي النبوية في صدر الإسلام، رسالة جامعية لنيل شهادة الماجيستر، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2001-2002، ص39-40.

[5] – كعب بن مالك: الديوان، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد، 1966 م، ص281.

ألا أنعِي النّبيَّ لأَصْحابِــهِ، *** وأصْحَابِ أصْحَابِهِ التَّابعينا
ألا أنعِي النّبيَّ إلى من هَدَى *** مِنَ الجِنِّ ليلةَ إذْ تَسْمَعُونــا
لِفَقْدِ النّبيِّ إمَامِ الهُـــــدَى *** وَفَقْدِ المَلاَئِكَةِ المُتَرَلِينـــــا

وأمَّا شاعره صلى الله عليه وسلم، حسَّان بن ثابت فيقول في مرثية مطولة مطلعها:

بطيبةَ رَسمٌ للرسولِ ومعهــــدُ، *** منيرٌ، وقد تعفو الرسومُ وتهمــدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دارِ حرمةٍ *** بها مِنْبَرُ الهادي الذي كانَ يَصْعَدُ
ووَاضِحُ آياتٍ، وَبَاقي مَعَالِـــمٍ، *** وربعٌ لهُ فيهِ مصلى ً ومسجــدُ
بها حجراتٌ كانَ يتزلُ وسطهــا *** مِنَ الله نورٌ يُسْتَضَاءُ، وَيُوقَـــدُ

وقد تسابق[1] شعراء صدر الإسلام إلى رثاء صحابة رسول الله والخلفاء الراشدين، فلمَّا مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنــه بهــذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال:

ذَهَبَ الذِينَ أُحِبُّهُم ، *** فَعَلَيكِ يَا دُنيَا السَّلاَمُ
لاَ تَذكُرِينَ العَيشَ لِي *** فَالعَيشُ بَعدَهُم حَرَامُ
إِنِّي رَضِيعُ وِصَالِهِم ، *** وَالطِّفلُ يُؤلِمُهُ الفِطَامُ

ورثى حسَّان عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ذاكراً شمائله، فقال[2]:

مَنْ سَرّهُ الموْتُ صِرْفاً لا مِزَاجَ لــهُ *** فلْيأتِ مأسَدةً في دارِ عُثمــانا
مستحقبي حَلَقِ المَاذِيّ، قَد شفعتْ *** فوْقَ المَخاطِمِ، بَيْضٌ زَانَ أبدانا*
ضحّوا بِأَشْمَطَ عنوانُ السُّجُود بِــهِ *** يُقَطّع اللَّيلَ تَسبِيحاً وقُرآنــــا

****

[1] – ينظر: أبو الفتح شهاب الدين محمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـ، ص508.

[2] – حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص244.

* – مستحقبي: استحْقَب الشيءَ: احتقَبه؛ الماذي: العَسَلُ الأبيضُ الرَّقيق، ومنه: خالصُ الحديد وجيِّدُه.

2-5- النقائض: النقائض في اللغة: مأخوذة في الأصل من "النَّقْض"، والنقض: إفساد مَا أَبْرَمْتَ مِنْ عَقْدٍ أَو بِناء، وَفِي الصِّحَاحِ: النَّقْضُ نَقْضُ البِناء والحَبْلِ والعَهْدِ. غَيْرُهُ: النقْضُ ضِدُّ الإِبْرام، نقَضَه يَنْقُضُه نَقْضاً وانْتَقَضَ وتَناقَضَ. والنِّقْضُ: اسمُ البِناء المَنْقُوضِ إِذا هُدم. وأَنْقُضُ قَوْلَهُ، أَراد بِهِ المُراجَعةَ والمُرادَّةَ. وناقضَه فِي الشَّيْءِ مُناقَضةً ونِقاضاً: خالَفَه، والمُناقَضةُ فِي الْقَوْلِ: أَن يُتَكَلَّم بِمَا يتناقَضُ مَعْنَاهُ. والنَّقِيضةُ فِي الشِّعْرِ: مَا يُنْقَضُ بِهِ.[1]

والنقائض في الاصطلاح: "أن يتّجه الشاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً، فيعمد الآخر إلى الرد عليه هاجياً أو مفتخراً، ملتزماً البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول"[2]. و"النقيضة: قصيدة يردُّ بها شاعر على قصيدة لخصم له، فينقض معانيها عليه: يقلب فخر خصمه هجاءً، وينسب الفخر الصحيح إلى نفسه هو"[3].

"فن النقائض، الذي عرفه الأدب العربي في العصر الأموي، فنًّا متكامل الأركان والسمات المميَّزة، لابد له من بدايات ومراحل قطعها قبل أن يصل إلى هذه الصورة المتكاملة العناصر، إذ ليس من طبيعة الأشياء أن تطلع علينا النقائض أول ما طلع كاملة الصورة، تامة التقاليد والعناصر، متوافرة الشرائط والطرائق، كما ظهرت عن فحولها: الفرزدق وجرير والأخطل، اللذين وصفهم أحد الباحثين بـ: "المثلث الأموي""[4].

من خلال هذا القول يمكننا أن نستخلص بعض ما يتعلق بالنقائض في عصر صدر الإسلام في صورته الاصطلاحية، قبل أن يبلغ أوجه فيما يليه، وما ساعد هذا الفنَّ في تلك الفترة تلك الصراعات التي تعاقب ذكرها بين المسلمين من جهة والكفار من جهة أخرى.

---

[1] - ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، المرجع السابق نفسه، ج14، ص242-243.

[2] - النوتي زكرياء عبد المجيد، الأدب الأموي تاريخه وقضاياه، مطبعة الحسين الإسلامية، جامعة الأزهر (مصر)، ص 88.

[3] - فروخ عمر، المرجع السابق نفسه، ص 361.

[4] - خليل عبد السادة إبراهيم الهلال، شعر النقائض، محاضرات في الأدب الإسلامي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص1.

"وقد استثمر شعراء المسلمين هذا الفن في الدفاع عن نبيِّهم وعقيدتهم وعن إخوانهم المسلمين، لما يوفره هذا الفن من قدر على هدم ما يدعيه شعراء المشركين من مفاخر، وما يلصقونه بالمسلمين من عيوب"[1].

وهذا كان دأب الشعر ودأب الشعراء –المسلمين– في هذا العصر، ينصرون الدين ويقفون إلى جانب الحقَّ ويذودون عنه بسيوفهم وألسنتهم، وهذه الأخرى كانت أشقُّ على الكفَّار من حد السيف وصليله، فالشعر كان بالنسبة للعرب كالقدر أو أشدَّ من ذلك، وإنَّ المناقضة جعلت شعراء قريش يعودون شعرهم قبل أن يذيعوه، ويهيِّؤونه خوفاً من تحمُّل مغبَّة الكذب فيه، وإيماناً جازماً منهم في أنَّ الردَّ سيكون لاذعاً مميتاً لهم من طرف المسلمين، ذلك أنَّ النقائض الجاهلية كانت بين باطل وباطل، وإنَّها في الإسلام معركة بين حقٍّ وباطلٍ يعلم الحقَّ فينأى عنه، فقد جاء النقيض على غير هيئته تلك – في الجاهلية–، إذ إنَّه تعدى في أسلوبه، وتوطَّن في معانيه، فدحض تلك النزعات العصبية والمصالح القبلية، وأصبح قضية حضارة، ولا نبالغ إن قلنا امبراطورية عظمى.

وأمَّا مسألة جودة النقائض في هذا العصر، فإنَّها شأن كلِّ فنٍّ حديث، يبدأ خافتاً ثم صلباً ثمَّ يعقب مكانه فنٌّ جديد، ثم إنَّه لم ينطبق الحال على جميع القصائد، فنباهة الشاعر وفطنته تعزِّز من قوَّة الفنِّ من الوهلة الأولى، وقد كانت في جلِّها مؤثرة بأسلوب جادّ.

"إنَّ هذه النقائض لم تكن على مستوى واحد من حيث الجودة، فمنها ما يتمتع بأسلوب قوي، ومنها ما يتَّسم بالضعف والاضطراب، وذلك تبعاً لقدرة الشاعر الفنيَّة، إذ يتمتع بأسلوب قوي، ومنها ما يتَّسم بالضّعف والاضطراب، وذلك تبعاً لقدرة الشاعر الفنية، إذ إنَّ الشعراء يتفاوتون فيها"[2].

وقد اشتهر في هذا العصر العديد من الشعراء الذين اتَّخذوا من فنِّ النقائض سهماً يرمون به من رماهم ويتحاجُّون به، ومن هؤلاء نجد: حسَّان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد

[1] – المرجع السابق نفسه، ص3.

[2] – المرجع نفسه، ص4.

الله بن رواحة وغيرهم، فأمَّا شعراء قريش -من الكفَّار-: فعبد الله بن الزعبرى وضرار بن الخطاب وأبو سفيان بن الحارث وغيرهم[1].

ومن أمثلة النقائض في شعر صدر الإسلام قول ضرار بن الخطاب بن مرداس في يوم بدر[2]:

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الأَوْسِ وَالْحَيْنُ دَائِرُ *** عَلَيْهِمْ غَدًا وَالدَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ
وَفَخْرُ بَنِي النَّجَّارِ أَنْ كَانَ مَعْشَرٌ، *** بِبَدْرٍ أُصِيبُوا كُلُّهُمْ ثُمَّ صَائِرُ
فَإِنْ تَكُ قَتْلَى غُودِرَت من رجالِنَا *** ببدر فإنا بعدم سَنُغَادِرُ
وَتُرْدِي بِنَا الْجُرْدُ الْعَنَاجِيجُ وَسْطَكُمْ *** بَنِي الأَوْسِ حَتَّى يَشْفِيَ النَّفْسَ ثَائِرُ*
وَوَسْطَ بَنِي النَّجَارِ سَوفَ نُكِرُّهَا، *** لَهَا بِالْقَنَا وَالدّارِعِينَ زَوَافِرُ

فردَّ عليه كعب بن مالك في رائية يقول فيها[3]:

عَجِبتَ لأَمرِ الله والله قَادِرٌ *** عَلَى مَا أَرَادَ لَيسَ لله قَاهِرُ
قَضَى يَومَ بَدرٍ أَن نُلاَقِيَ مَعشَرًا *** بَغَوا وَسَبِيلُ البَغيِ بِالنَّاسِ جَائِرُ
وَقَد حَشَدُوا واستَنفَرُوا مَن يَلِيهِمُ *** مِنَ النَّاسِ حَتَّى جَمعُهُم مُتَكَاثِرُ
وَسَارَت إِلينَا لاَ تُحَاوِل غَيرَنَا *** بِأَجمَعِهَا كَعبٌ جَمِيعًا وَعَامِرُ
وَفِينَا رَسُولُ الله وَالأَوسَ حَولَهُ *** لَهُ مَعقِلٌ مِنهُم عَزِيزُ وَنَاصِرُ

[1] - ينظر: خليل عبد السادة إبراهيم الهلال، شعر النقائض، المرجع السابق نفسه، ص4.

[2] - ينظر: فتح الدين محمد أبو الفتح، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط1، 1993 م، ج1، 335-336.

* - العناجيج: عَنَجَ البعيرَ : رَبَطَ خِطامَه في ذراعه وقصَّرَه؛

[3] - كعب بن مالك: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص200.

* الفصل الثالث:

الصورة الفنـّية في شعر حسَّان بن ثابت

1- حسَّان بن ثابت، شاعر الإسلام

1-1- أصله ونسبه

1-2- نشأته

1-3- شأنه في الإسلام

1-4- صدق شاعريته

1-5- وفاته

2- مصادر الصورة الفنِّية في شعر حسَّان بن ثابت

2-1- الدين مصدر من مصادر شعر حسَّان

2-2- الشعر مصدر من مصادر شعر حسَّان

3- وظيفة الصورة وجمالياتها في شعر حسَّان بن ثابت

3-1- وظيفة الصورة في شعر حسّان

3-2- جماليات الصورة في شعر حسَّان بن ثابت

*** تمهيد:**

يعدُّ حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي الأنصاري من شعراء عصره، فهو شاعر مُكثِرٌ مُجيد، اتَّخذ شعره وسيلة يهجو بها الكفَّار ويباريهم بها، وحين شُقَّت عليهم مُبَاراتُهُ أخذوا في مكرهم ينسبون إليه من الشعر رديئه -ممَّا برئ منه-، وإنَّ كثيراً من قصائده ضاعت فيما لم يدوَّن، ورغم هذا فقد أدَّى شعره ضرورة ما سُخِّرَ له، فقد نَصَرَ الدِّين بلسانه وسيفه، ونافح عن رسول الله وذاد عنه، ويكفيه فخراً أنَّه شاعر الرسول. وممَّا ميَّز شعر حسَّان أنَّه لم يأتِ استجداءً ولا تكلُّفا، وقد غلب على شعره فيما بعد طابعاً سياسياً بامتياز، لم يتحيَّن به فرصاً، و لم يترل به إلى نفق الماديات.

في هذا الفصل سنلقي الضوء على أهمِّ المحطات التي ميَّزت شعر حسَّان بن ثابت، والتي جسَّدت الصورة الفنِّية في شعر حسَّان بن ثابت.

1- حسَّان بن ثابت، شاعر الإسلام:

1-1- أصله ونسبه:

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو، ويمتد نسبه إلى النجار فالخزرج حتى يصل إلى عامر بن ماء السماء، ثم ينتهي إلى قحطان، فهو من بني النجار أخوال الرسول، وهو خزرجي، وفي عامر بن ماء السماء يلتقي باللخميين ملوك العراق وبالغساسنة ملوك الشام وأخيرا هو قحطاني.

وقد كثر فخر حسان بانتمائه إلى عامر بن ماء السماء الذي يلتقي فيه بمحمد وحيه من المناذرة والغساسنة أولئك الذين أفاضوا عليهم عطاياهم لأنهم جميعا فروع لأصل واحد.

وكنيته: أبو الوليد وأبو عبد الرحمن وأبو الحسام.

وأمه: الفريعة بنت خالد بن قيس وهي خزرجية كحسان[1].

1-2- نشأته:

كانت يثرب، المدينة التي نشأ فيها، إحدى مدن الحجاز المهمة إلى الشمال من مكة والطائف، ولا تتوافر لدينا أخبار موثوقة عن سكانها القدامى، إذ لم يستطع المؤرخون المحدثون جلاء تاريخ يثرب القديم. والذي نعرفه ويهمنا الآن، أنَّ أهل المدينة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا عرباً ويهوداً. وكان العرب فيها ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج، وبينهما صلى قربى معروفة، ومن أشهر قبائل اليهود فيها قبيلتا قريضة والنضير.

والذي نعرفه من كتب التاريخ أن الصراع في يثرب اشتد بين القبائل العربية من جهة، والقبائل اليهودية من جهة ثانية، ثم كان صراع أيضاً بين الخزرج من جهة، وبين الأوس من جهة ثانية، تغذيه القبائل اليهودية، وكان ذلك بسبب تشاحنهم على المناطق الخصبة في يثرب. وقد شارك حسان في بعض هذا الصراع قبل الإسلام، والذي اتخذ شكل حروب متعاقبة كان

[1] - ينظر: خليفة محمد محمد الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، مجلة البحوث الإسلامية، العدد: 2، ج2، ص213.

أهمُّها يوم سمير (للأوس على الخزرج)، ويوم كعب بن عمرو (للخزرج على الأوس) ويوم حاطب (للخزرج على الأوس)، ويوم بعاث (للأوس على الخزرج)[1].

1-3- شأنه في الإسلام:

نصَّب حسَّان نفسه للدفاع عن الدين الجديد والردِّ على أنصار القديم، وقد نشبت بين الفرقين معارك لسانية حامية، فكان الشعر شعر نضال يهجئ فيه الأعداء ويمدح فيه رجال الفريق، و لم يكن المدح ولا الهجاء للتكسب، بل للدفاع عن سلطتين دينيتين وعن حكمين مختلفين. ومن ثم اصطبغ الشعر بصبغة السياسة فكان شعراً سياسياً حقيقياً.

وفي هذه الحقبة أصبح حسَّان شاعر الرسول وأصبح شعره سجلاً لجميع الأحداث التي توالت على المسلمين وأصبحت لحسَّان منزلة خاصة في نفوس المسلمين لدفاعه عن الرسول الكريم وذبِّه عن الإسلام وأحيط شعره بهالة من الإعجاب والتقدير. وهذه المكانة التي حظي بها حسَّان هي التي تفسِّر .... كثرة ما أضيف إليه الشعر حتى لقد حمل عليه ما لم يحمل على أي شاعر إسلامي آخر.

1-4- صدق شاعريته:

تعمل البيئات عملها في خلق الأديب وتكوين شاعريته، والشاعر الصادق هو ابن بيئته التي تحيط به، وتؤثر فيه، فتلهمه حيث يستلهمها، ويفي لها فيترجم عنها، وتصدق ترجمته كلما صدق تأثره فالبدوي الذي تشد بصره المفاوز الواسعة ويلمح سماءها الصافية أو الماطرة ونجومها الزاهرة، وأرضها المقفرة، أو وديانها المعشبة، وآكامها الصخرية، وجبالها الشامخة وكهوفها وأغوارها السحيقة، ويبصر فوق رمالها الظباء السوائح، وفي سفوح جبالها ووديانها الإبل والأغنام ذلك الذي يبصر كل ذلك خليق به أن يفتن في تصوير ما حوله، وما يلم به بصره، وأن ينتزع صوره من ذلك المحيط حتى يكون بارا ببيئته، وأن يصدق عليه أنه وليدها الذي يحكي عنها حتى يلائم قوله أمزجة قومه وما يألفون من الصور وهو حين يفعل ذلك يكون الترجمان الصادق في تعبيره، والمصور المبدع في تصويره.

---

[1] – ينظر: حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، تقديم: مهنا عبد. أ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994 م، ص20.

وشاعر الريف الزاهر الذي يعيش بين أحضان الطبيعة الطبيعية يستلهم جمال الورود وشدو الطيور، وخرير الجداول وفضي النهر في الليل المقمر، وذهبي الجدول عند الأصيل فيلهمه كل ذلك فيضا من الإحساس بالجمال يحكيه شعرا، ويرسله ترانيم شادية مثل ذلك الشاعر عملت فيه بيئته عملها فتجاوب معها وعبر عنها وكأنه الوتر العازف معها في ألحان الحياة. [1]

1-5- وفاته:

أجمع المؤرخون العرب أنَّ حسان عاش مائة وعشرين سنة، ستون منها في الجاهلية وستون في الإسلام، وذكر بعضهم أنَّه ولد قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ببضع سنين.

ورأى آخرون أنَّه مات سنة (50 هـ) في خلافة معاوية بن ابي سفيان. غير أنَّ المستشرق الشهير نولدكه لا يعتقد أنَّه عاش هذا العمر الطويل، ويعلِّل وهم قدماء المؤرخين بأنَّهم التبس عليهم أعمار ملوك غسان وتسلسلهم. ويرجح أن يكون حسان اتصل ببلاط بني جفنة حوالي سنة 610 م.[2]

[1] - ينظر: مجلة البحوث الإسلامية، المرجع السابق نفسه، ص214.

[2] - ينظر: حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص8.

2- مصادر الصورة الفنِّية في شعر حسَّان بن ثابت:

2-1- الإسلام مصدر من مصادر شعر حسَّان:

يعدُّ الدين بقيمه وآثاره مصدراً مهمًّا في التراث العربي والثقافة العربية، ذلك أنَّه جاء ليعلِّم، وجاء ليُبَيِّنَ المنهج المستقيم، وجاء ليبني حضارة تُحسن التصرُّف في مشاغل الحياة، وإنَّ القرآن الكريم جاء دستوراً قويماً، ومصدراً مهمًّا من مصادر هذا الدين الحنيف، فكان لزاماً أن يتأثَّر كل فنٍّ به، فكان الشعر -وهو ديوان العرب- أولى الفنون تأثُّراً به، بعد أن عدمت كلُّ سبل الإتيان بمثله -أي: القرآن-، وكان ظهور الإسلام دافعاً بالشعر لنحوٍ جديد، يتضمَّنُ قيماً عُليَا، تَبثُّ في النفوس الطُّهر والغِنَى، فتسابق إليه النَّاس وتفنَّن به الجلاَّس، وما كان الشعراء إلاَّ لسانَ هؤلاء، وهذا حسَّان بن ثابت يقتني كل وسيلة لنصره، يستأذن فيؤذن له، ويستجلب خيله فتأتي إليه مسرعة متمطِّرة لتحمل كلماته فتصعق بها أراذل الشرك، وفراعنة قريش.

إنَّ المتأمِّل في شعر حسَّان بن ثابت سيجده ذلك الشاعر المجيد الذي اتَّخذ من الحزم والعزم مجداً ينصر به الدين ويعلي كلمته، فيستوحي منه كل خافية، ويتبين منه كل جالية، فهذا هو حسَّان القائل[1]:

وَجبْرِيل رَسُول الله فِينَا *** وروح الْقُدس لَيْسَ لَهُ كِفاءُ
وَقَالَ الله قد أرْسلت عبدا *** يَقُول الْحق إِن نفع الْبَلَاءُ
شهِدت لَهُ فَقومُوا صَدِّقُوه *** فقلتم لَا نقوم وَلَا نَشَاءُ
وَقَالَ الله قد سيرت جنداً *** هم الْأَنْصَار عرضتها اللِّقَاءُ

يجتبي من الشعر ما يدعو به إلى الدين، ويبارك فضل جبريل أمين الوحي، ولا يتوانى للحظة أن يذكر فضل النبي صلى الله عليه وسلَّم على هذه الأمَّة، ويرسل سهمه فيصيب به أعنَّة الكفر، ودواليب المشركين، ثمَّ ما يفتأ يذكر الأنصار وشيمهم وفضلهم في نصر هذا الدين وهافتهم عليه.

[1] - حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص20.

وغالباً ما يوظِّف حسَّان في شعره صورة الإنسان المؤمن التي تعكس تأثُّره بمنهج النبـــوة والكتاب، ومن ذلك قوله[1]:

تَرَحَّل عَن قوم فضلت عُقُولهـــمْ *** وَحل على قوم بِنور مُجَـــــدد

هدَاهُم بِهِ بعد الضَّلَالَة رَبهـــــم *** وأرشدهم من يتبع الْحق يرشد

فهو في هذين البيتين يستجلب صورة الإنسان في كماله، ويدعو إليها بقوله: ترحَّل، أي ارتحل وابتعد، وهذا من فعل أمر يحثُّ به ويُرشد، وهو بذلك يرسم في أخيلتنا صورة الإنســـان الآخر، الذي وجب فيه الضَّلال، ثمَّ نجده يعطي البديل بقوله: وحُلَّ، ثم نجده ينعت القوم بأبدع الأوصاف: الاستنارة، الهداية، الرشاد، الحق.

كما نجد أنَّ شعر حسَّان يستجلب الألفاظ الإسلامية وينسجها في أبهى حلَّة، ويوظِّفها في أكمل صورة، ويجلعها تمنح شعره خاصِّية الدين ويوظِّف جميل المعاني، ويتفـــنَّن بأســـلوبه المتمكن الرَّصين؛ ومن أمثلة ذلك قوله[2]:

وَاللَهِ رَبّي لا نُفارِقُ ماجِداً *** عَفَّ الخَليقَةِ ماجِدَ الأَجدادِ

مُتَكَرِّماً يَدعو إِلى رَبِّ العُلا *** بَذلَ النَصيحَةِ رافِعَ الأَعمادِ (....)

وَاللَهِ رَبّي لا نُفارِقُ أَمـــرَهُ *** ما كانَ عَيشٌ يُرتَجى لِمَعادِ

ابتدأ الشاعر قصيدته بالثناء وتمجيد ربِّ العباد، مستخدماً لفظـــة: "والله ربي"، وهـــو قسم وإثبات لعبوديته لله عزَّ وجل، ثمَّ استخدم ضمير الجمع في لفظة: نفارق، وهذا يدلُّنا على أنَّ حسَّان أقسم بضمير مفرد يتَّصِل به، يبثُّ فيما بعده يقينه بلحمة المسلمين، وثقته التامـــة في أنَّهم لن يتفرقوا عن أمر الله ونبيه، وهي دليل على توحد كلمة المسلمين على الحقِّ، وفي هـــذا إشارة إلى ذلك الجانب الروحي الذي استطاع أن يبثَّه الإسلام في قلوب معتنقيه، ثمَّ إنَّ قريشـــاً ما كان يذهلها أمر إلاَّ تلك اللحمة التي سعوا لتفريقها وبذلوا في أشنها الغـــالي والنفـــيس، ثم خابوا و لم يتمُّوا هذا السعي، وقد كبَّدهم شعر حسَّان -بغض النَّظر عن المقومات الأخـــرى-

[1] - حسان بن ثابت: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص59.

[2] - المرجع نفسه، ص56.

خسائر لم يحسبوا لها حساباً، تلك الصَّلابة في حسَّان استمدَّها من الإسلام، ومن هدي القرآن الكريم.

ثمَّ نجد حسَّان في البيت الموالي يوردُ لفظة "ربِّ العلا"، فهذا جانب آخر يجب أن يُسترعى فلا يُغفل عنه، فلفظة "ربِّ العلا"، انبثعت من نفس أُشربت معاني هذا الدين، ألا وهي النفس المسلمة، وهذه الألفاظ شبه منعدمة في شعر العصر الجاهلي إن لم نقل غير موجودة أصلاً، وهي مفردات نفيسة، تنبعث من صدق المؤمن ويقينه بربِّه. ثم نجده يمتدح الرسول صلى الله عليه وسلَّم ثم يكرِّر قسمه في البيت الأخير، ثمَّ يوظِّف لفظة "معاد"، والمعاد هو الحياة الآخرة، وهذه تشير إلى إيمانه الراسخ بيوم البعث، وهذه المفردة تعدُّ خاصية من خاصيات الإسلام، إذ لم تستخدم قبل هذا العصر، وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى مخاطباً نبيه: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ"[1] {سورة القصص(85)}، وفي تفسير القرطبي لقوله تعالى: "لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ" يقول: "خَتَمَ السُّورَةَ بِبِشَارَةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَدِّهِ إِلَى مَكَّةَ قَاهِرًا لِأَعْدَائِهِ. وَقِيلَ: هُوَ بِشَارَةٌ لَهُ بِالْجَنَّةِ"[2]. وأمَّا ورودها في قول حسَّان فالمقصود منها واضح جليٌّ، فقوله: ما كانَ عَيشٌ يُرتَجى، يقطع الشكَّ باليقين في أصل توظيفها (أي يقصد: الدار الآخرة)، وربَّما نستشف معنى اللفظ في شعر زهير بن أبي سلمى، ولكن المقصود –ربَّما– يختلف، حيث قال:

فَلا تَكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم *** لِيَخفى وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر *** لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ[3]

[1] – سورة: القصص، الآية: 85، قال تعالى: " إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ".

[2] – القرطبي أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964 م، ج19، ص639.

[3] – ينظر: بن هلابي صالح بن سعيد، لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، د.ط، د.ت، ج5، ص125.

ويروى في ذلك: أي لا تكتمن الله في ما نفوسكم فيؤخَّر ذلك إلى يوم الحساب فتحاسبوا به أو يعجل في الدنيا النقمة به، وقال بعض أهل اللغة يؤخر بدل من يعلم كما قال تعالى: ((ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة)) [1].

وحين نجد أنَّ حسَّان يضمِّن الآيات القرآنية في شعره، فهذه علامة أخرى من تأثير القرآن في الشعر العربي، ومن ذلك قوله[2]:

دلاَّهُـــم بِغرورٍ ثمَّ أَسلَمَهُم *** إنَّ الخَبيثَ لمن والاه غـرَّارُ

وقال إني لكم جارٌ فأوردهم، *** شرّ الموارِدِ فِيهِ الخزيُ والعارُ

في هذين البيتين قام الشاعر بتضمين آيتين من القرآن، على نحو قوله تعالى: " فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا .."[3] {الأعراف(21)}، وقوله تعالى: " وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ"[4] {الأنفال(48)}، ويقول القرطبي في تفسيره للآية: "رُوِيَ أَنَّ الشَّيْطَانَ تَمَثَّلَ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، وَهُوَ مِنْ بَنِي بَكْرِ بْنِ كِنَانَةَ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَخَافُ مِنْ بَنِي بَكْرٍ أَنْ يَأْتُوهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ، لِأَنَّهُمْ قَتَلُوا رَجُلًا مِنْهُمْ. فَلَمَّا تَمَثَّلَ لَهُمْ قَالَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُ"[5]، وإنَّ تضمين حسَّان لآيتين من موضعين مختلفين، إبراز وتأكيد منه لمكر الشيطان وغروره لبني آدم، فهو في شقِّه تضمين، وفي شقه الآخر تحذير من مكائد الشيطان.

[1] – ينظر: الشيباني أبي عمرو، شرح المعلقات التسع، تحقيق: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2001 م، ص199.

[2] – ينظر: حسان بن ثابت، (قومي الذين هم آووا نبيهم)، موقع الديوان، الشبكة، تاريخ التصفح: 2019/06/13، https://www.aldiwan.net/poem21570.html

[3] – سورة الأعراف، الآية: 21، قوله تعالى: "فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ".

[4] – سورة الأنفال، الآية: 48.

[5] – القرطبي أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، ج8، ص26.

2-2- الشعر مصدر من مصادر شعر حسَّان:

حين كان الشعر ديوان العرب، كان لزاماً على الشعراء في كلِّ زمن أن ينـــهلوا منـــه ويغترفوا من بحره، والذي يجب التنويه إليه أنَّ الشعر وإن ارتقى في فترة من الفتـــرات يظـــلُّ يستقي مفرداته وألفاظه ومعانيه ممَّا سبقه، فعندما ندرك أنَّ الشاعر خاضع لتكوينات ذاتية حينها يمكننا أن نتيقن بضرورة العودة إلى هذا الديوان العربي الأصيل.

مما اقتضته طبيعة الخضرمة التي صُنِّف فيها شعراء من أمثال حسَّان بن ثابت أن تكـــون القصيدة العربية نِتَاجاً لامتزاج عصرين، كان لهما التأثير الكبير في الشعر العربي، وأمَّا التجديـــد فهذا من خصائص كلِّ عصر، له مؤثراته وأغراضه وخصائصه، وممَّا نجد في هذا الباب طمـــوح الشاعر أن يبلغ شعره من النفوس ما تبلغه الخطابة، وجميع الفنون الأخرى –وإن كان الشـــعر أعلى مترلة منها–، ومن الطموحات التي تجلَّت في شعر حسَّان بن ثابت حسن توجيهه للكلمة، وسبكه للعبارة، وتدقيقه في المعنى، فقد عُرف عنه الإكثار وشُهدت له الإجادة، وهذان تَأَتَّيَا من تمكنه في العصر الجاهلي –هذا من جهة–، وتكونه في صدر الإسلام وتأثُّره بالقرآن –من جهة أخرى–، ولعلَّ أهمَّ ما يمكن ملاحظته في شعر حسَّان هو أنَّه تعمَّد –خاصة– في هجائه للكفَّار توظيف المفردات الجاهلية وذلك لتأثيرها في قريش، وتنزيهاً لما يتعلَّق بالإسلام –هذا من ناحية– ، ومن ناحية أخرى الإظهار بأنَّه يخاطب عقولاً سفيهة، لا تعي معنى القرآن ولا فضل الـــدين، بأسلوب يرتقي فيه لصفات الشاعر الحذِق، وأخذ في مشادَّتهم واندفع في نعته لهم بشتى أوصاف الجبن، والقبح، والرذيلة، ونلمس ذلك في قوله:

أَلاَ أَبلِغْ أَبَا سُفيَانَ عنِّـــي ، *** فَأَنتَ مجوفٌ نخبٌ هواءُ

وَأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتكَ عَبـــدًا *** وَعَبدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ

فقد ابتدأ بقوله: "ألا أبلغ" وهذه عبارة كثيراً ما نلاحظ ورودها في الشعر الجاهلي، وقد استخدمها العرب إذا ما شرعوا في هجاءٍ، أو تولَّوا عن مترل فضل، كقول أَوْس بن غلفاء وَهُوَ يردُّ على يزِيد بن الصَّعق[1]:

أَلاَ أَبلِغ لَدَيكَ بَنِي تَمِيمٍ *** بِآيَةِ مَا يحبونَ الطَّعَامَا

[1] – ينظر: الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار المعارف، مصر، ط1، ج1، ص167.

وفي قوله: "وأنَّ سيوفنا تركتك عبداً"، تصوير لحدث في مجمله، وتوظيف "وأنَّ سيوفنا" فيه تغنِّي واضح بالسيف على طريقة الجاهليين، وقد ذكر السَّيف بنفس الأسلوب في شعره الجاهلي، في قوله[1]:

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلمَعنَ بِالضُّحَى ، *** وَأَسيَافُنَا يَقطُرنَ مِن نَجدَةٍ دَمَا

ومن شعره أيضاً في الهجاء، قوله[2]***:

واللَّهِ ما في قُرَيشٍ كُلِّها نَفَـــرٌ ، *** أكْثَرُ شَيْخاً جَبَاناً فَاحِشاً غُمُـــرا

أذَبَّ أصْلَعَ سِفْسِيراً لَـــهُ ذُأبٌ ، *** كالقردِ يعجمُ وسطَ المجلسِ الحمرا

هذرٌ مشائيمُ محرومٌ ثويهـــمُ، *** إذا تروحَ منهمْ زودَ القمـــرا

أما ابنُ نابغةَ العبدُ الهجينُ، فقـدْ *** أُنْحي عَلَيْهِ لِساناً صَارِماً ذَكَـرَا

ما بالُ أُمّكَ زَاغَتْ عندَ ذي شَرَفٍ *** إلى جَذِيمَةَ ، لّما عَفّتِ الأثَـرَا

إذا ما تأمَّلنا في الألفاظ: غمر، أذبّ، سفسيراً، ذأب، الحمر، هذر، مشائيم، ثويهم، وجدنا لها أصلاً في الجاهلية، وقلَّ تداولها بين شعراء صدر الإسلام. وأمَّا إذا تأمَّلنا قول حسَّان: "ما بالُ أُمّكَ زَاغَتْ عندَ ذي شَرَفٍ *** إلى جَذِيمَةَ ، لّما عَفّتِ الأثَـرَا "، فقد قضى هنا من الهجاء وطره، وقد كان أشدَّ تخشاه العرب في جاهليتها أن يَقرِن شاعر اسم رجل بأمّه أو يسائله عنه، فأمَّا ذكر اسم جذيمة فلها أبعاد عدَّة، وجذيمة هذا من أصل جاهلي "وكان رجلاً من الأزد، وكان ملكا على الحيرة وما حولها، وكان يترل الأنبار، وكان فيما يقال من أحسن الناس وجهاً وأجملهم"[3].

---

[1] – حسان بن ثابت: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص219.

[2] – المرجع نفسه، ص135.

*** – غمرا: (لم يجرب الأشياء)؛ أذبّ: (أذبَّ المكانُ إذا كثُر ذُبابُهُ)؛ سفسيراً: (السمسار)؛ هذر: (سَقَطُ الكلام الذي لا يُعبأ به).

[3] – الضبي المفضل بن محمد، أمثال العرب، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص144.

3- وظيفة الصورة وجمالياتها في شعر حسَّان بن ثابت:

3-1- وظيفة الصورة في شعر حسّان:

3-1-1- مفهوم الصورة: جاء في لسان العرب: "الصورة وَالْجَمْعُ صُوَرٌ وصِوَرٌ وصُوْرٌ، وَقَدْ صَوَّرَهُ فَتَصَوَّرَ. الْجَوْهَرِيُّ: والصِّوَرُ، بِكَسْرِ الصَّادِ، لُغَةٌ فِي الصُّوَر جَمْعُ صُورَةٍ، والصُّورَةُ تَرِدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى ظَاهِرِهَا وَعَلَى مَعْنَى حقيقةِ الشَّيْءِ وَهَيْئَتِهِ وَعَلَى مَعْنَى صِفَتِه. يُقَالُ: صورةُ الفعلِ كَذَا وَكَذَا أَي هَيْئَتُهُ، وصورةُ الأَمرِ كَذَا وَكَذَا أَي صِفَتُه"[1].

يرتبط مفهوم الصورة الفنِّية في شكله النقدي بجمالية الشعر وانبعاثه، فهي جوهر الشعر وممَّا يزيد الرغبة إليه، وعادة ما يرتبط مفهومها بمفهوم التجربة الشعرية.

3-1-2- تأثير ووظيفة الصورة في الشعر:

لعلَّ أهمَّ ما يجذب المتلقي للشعر العربي بنائية الصورة الفنِّية، وتفاعلها مع النص، إذ إنَّ النقد يعتبر الصورة وسيلة فنية تنقل لنا التجربة الإنسانية وتجسِّد فيها أفكاراً إبداعية، تقوم على العديد من الأسس منها اللغة والموسيقى والوزن، والقافية، والإيحاء، والإيقاع، ، وتشمل العواطف والخواطر، والأحاسيس.

"وللصورة الفنِّية مكانتها في النص الأدبي، وبخاصة الشعر، فهي التي تعطيه القدرة على الإيحاء والتأثير، والشعر يكتسب أهميته ودوره وغناه من الصور الشعرية؛ لأنها هي التي تعطي الألفاظ المؤلفة للغة قدرتها الإيحائية في الدلالة، فنرى الكلمات التي مسَّتها الصورة، تغدو ينبوعًا لا ينضب للإمكانات الدلالية والصوتية"[2].

إذن فإنَّ وظيفة الصورة في الشعر هي إشراك عنصر الخيال الذي يظهر من خلاله إبداع الشاعر، وتوظيفه لتلك الخلفيات التي يستدعيها الناقد ويستقيها من شعره. ونجد أنَّ أي شاعر في قصيدته يرغب في تصوير تجربته وإيصالها من خلال الدلالة عليها، فيمنحها عاملاً حسيًّا، يوظِّف من خلاله تلك القدرة الإيحائية للصورة، بينبوعاتها المختلفة من موسيقى ووزن.

---

[1] - ينظر: ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414 هـ، ج4، ص473.

[2] - ينظر: حسين علي محمد حسين، التحرير الأدبي، مكتبة العبيكان، دون بلد، ط5، 2004 م، ص382.

نجد أنَّ حسَّان بن ثابت قد وظَّف في قصائده أغراضاً متعددة، مستجلباً دروه الفني وتجربته الشعرية الخالصة انطلاقاً من تغيرات اجتماعية شهدتها فترة ظهور الإسلام، فنجد في شعره رغبة جامحة لإظهار حبِّه ونصرته لرسول الله والدلالة على دين الإسلام ودعوة الناس إليه، وهذان العاملان لعبا دوراً هامًّا في تكوينية شعر صدر الإسلام.

وتتوالى القصائد عند حسان بن ثابت التي نلمس فيها أنَّ الصورة قد جاءت في أبهى حلَّة وأدَّت وظائفها كما يجب، خاصة فيما يتعلق بشعر الرِّثاء، ومن ذلك قوله في رثاء النبي صلى الله عليه وسلَّم[1]:

بِطَيبَةَ رسمٌ للرَّسُولِ ومَعهَـــدُ، *** منيرٌ، وَقَد تَعفُو الرُّسُومُ وَتَهمُـدُ
وَلاَ تَنمَحِي الآيَاتُ مِن دَارِ حُرمَةٍ *** بِهَا مِنْبَرُ الهَادِي الّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَوَاضِحُ آيَاتٍ، وَبَاقي مَعَالِـــمٍ، *** وربعٌ لهُ فيهِ مصلى ً ومسجـدُ

وهنا نجده متأثِّراً أشدَّ التأثر، من خلال توظيف عنصر الحنين وإبداء الشوق، وقد اعتبر هذا العنصر في الجاهلية مرتبطاً بفراق المترل أو الديار، وتتشابه المقدمات، ثم يُظهر أنَّ رسول الله كان سكناً لروحه، أي فاق أن يبكى على فراقه بكاء الناس على الناس، ونبراساً منيراً، وأخذ يتأمَّل في آثاره الباقية،كطيبة (أي: مكة)، داره، منبره، وباقي المعالم الدالة عليه، كمُصَلاَّهُ ومسجده ... إلخ. وهنا تتجلى قوَّة التأثر وتُرسم معالم الصورة الصادقة التي بثَّها الشاعر حسَّان.

وفي كثير من شعر حسَّان نلمس تضرعه ومناجاته لله، وإظهار خوفه ووجله منه، وإقرار ضعفه إليه، وفي ذلك دليل على أنَّ الدين قد لامس روحه قبل لسانه، ويرتسم ذلك في غير موضع، ومن ذلك قول حسَّان[2]:

يَا رَبّ! فاجْمَعنا فمَاً ونَبيَّنـَا، *** في جَنّةٍ تَثْني عُيُونَ الحُسّـــدِ
في جَنّة الفِرْدَوْسِ واكتُبْها لَنَا *** يا ذا الجلالِ وذا العلا والسؤددِ

[1] – حسان بن ثابت: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص60.
[2] – المرجع نفسه، ص65-66.

واللَّهِ أسْمَعُ ما بَقِيتُ بهـــالِكٍ *** إلا بكيتُ على النبيّ محمـــــدِ

يا ويحَ أنصارِ النبيِّ ورهطـــهِ، *** بَعْدَ المغَيَّبِ في سَوَاءِ المَلْحَـــدِ

وتظهر تلك العاطفة الجيَّاشة التي يتفضَّل بها الشاعر حسَّان، يبتدئ قوله بالدعاء، ثمَّ يبثُّ فينا مكانة الجنة ومنزلتها، ويرغبنا فيها، ثمَّ لا يفتأ يذكر محمداً نبي الله صلى الله عليه وسلم، اشتياقاً وحزناً على فقده. وقد عبَّرت هذه الأبيات عن تجربته العميقة وواقعه المرّ الذي يعيشه، فيصور ذلك من خلال قوله: "والله أسمع ما بقيت بهالك"، فهو بقسمه يؤكد أنَّه متعب من الحياة مرهق من تفاصيلها.

وقد صوَّر لنا في قصائد أخرى أحداث الحروب تصويراً دقيقاً، وبذلك أصبح مرجعاً مهمًّا في كتابة التأريخ الإسلامي، وهذه الوظيفة الشعرية تعكس حذاقته وفطنته كشاعر مجيد. ومن الأحداث التي صوَّرها لنا في أحسن أسلوب، واقعة بدر، ومنها قوله[1]:

لَقَد عَلِمَت قُرَيشٌ يَومَ بَـــدرٍ *** غَداةَ الأَسرِ وَالقَتلِ الشَديدِ

بِأَنّا حينَ تَشتَجِرُ العَوالـــــي *** حُماةُ الرَوعِ يَومَ أَبي الوَليدِ

قَتَلنا اِبنَي رَبيعَةَ يَومَ ســـاروا *** إِلَينا في مُضاعَفَةِ الحَديـــدِ

وَفَرَّ بِها حَكيمٌ يَومَ جالَـــت *** بَنو النَجّارِ تَخطِرُ كَالأُسودِ

وَوَلَّت عِندَ ذاكَ جُموعُ فِهرٍ *** وَأَسلَمَها الحُوَيرِثُ مِن بَعيدِ

تظهر وظيفة الصورة في شعر حسَّان ظهوراً جليًّا واضحاً، وفي هذه الأبيات نجده صوَّر لنا أحداث واقعة بدر تصويراً حيًّا، فقد ذكر: الأسر، القتل الشديد، ثم ذكر ابني ربيعة وهما: عتبة وشيبة وهما من زعماء قريش، وذكر الحديد، فقد جاءت قريش بطراً ورياءً تجرُّ الحديد (السلاح)، ظنًّا منها أنَّها لا يمكن أن تهزم، فلقيت ما لم تكن تضع له حساباً، وذكر حماة الحرب (وهنا يذكِّر قريشا بأنَّ قومه مستعدين لخوض غمار الحرب في أي وقت)، وذكر كيف فرَّت قريش خشية التنكيل بها.

[1] – حسان بن ثابت: الديوان، المرجع السابق نفسه، ص87-88.

3-2- جماليات الصورة في شعر حسَّان بن ثابت:

3-2-1- الاستعارة:

الاستعارة هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه، كما هو متعارف عليه عند البلاغيين، كما يعرفها بن قتيبة بقوله: " فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى، أو مجاورا لها، أو مشاكلا. فيقولون للنبات: نوء لأنه يكون عن النوء عندهم"[1]. ويقول في الاستعارة أحمد بن يحيى: "وهو أن يُستعار للشيء اسمُ غيره، أو معنى سواه"[2].

ومن أمثلة الاستعارة في شعر حسَّان بن ثابت:

لساني صارم لا عيب فيه *** وبحري لا تكدِّره الدلاء

فقد شبه لسانه بالبحر، وهكذا يكون قد صرح بالمشبه به (البحر) وحذف المشبه (الشعر)، وهذا يجعلنا نخصُّ له صفة من صفات الجمال الأدبي، فقد ذكر اللسان والبحر وباعد بينهما وجعلهما يدلاَّن على بعضهما البعض. فهذا نوع من أنواع الاستعارات وهو الاستعارة التصريحية.

ومن أمثلة الاستعارة في شعر حسَّان بن ثابت أيضاً قوله:

عَلِقَ الشَّقاء في قَلبِهَ فَأَرَانَهُ *** فِي الكُفرِ آخرَ هذهِ الأحقابِ

فقد جعل الشقاء سببا في الران الذي يصيب القلب، يقول تعالى: " كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ"[3] {المطففين (14)}، والرَّان هو: ما طبع على القلب، ثم إنَّه أبقى قرينة دالة على "العلقة" أو ما ترمز إليه وهي الفعل "علق"، أي إنَّه حذف المشبه به (العلقة) وأبقى قرينته، وهنا نجده وظَّف استعارة مكنية، وذلك بعدما جعل الشقاء والقلب شيئان ماديان. وقد جاء بمثلها في قوله:

---

[1] – الدينوري أبو محمد بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص88.

[2] – أحمد بن يحيى (ثعلب)، قواعد الشعر، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1995م، ص55.

[3] – سورة المطففين، الآية: 14.

يُبارِينَ الأعنَّة مُصعِداتٍ *** عَلَى أَكتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ

وممَّا يدلُّ –هنا– على الاستعارة المكنية قوله: "الأَسَلُ الظِّماء"، والأَسَلُ في اللغة هي الرِّماح، وجعلها تتعطش للدِّماء، والعطش خاصية في الإنسان.

3-2-2- الكناية:

الكِنَايَة في اللغة هي: أَن تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ. وكَنَى عَنِ الأَمر بِغَيْرِهِ يَكْنِي كِنَايَةً: يَعْنِي إِذا تَكَلَّمَ بِغَيْرِهِ مِمَّا يَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ نَحْوَ الرَّفَثِ وَالْغَائِطِ وَنَحْوِهِ[1].

أمَّا اصطلاحاً فهي: هي اللفظ المستعمل فيما وُضِع له في اصطلاح التخاطب للدّلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحبٍ له، أو يُشارُ به عادةً إليه، لما بينهما من الملابسة بوجهٍ من الوجوه. وتُطْلَقُ أيضاً على استعمال اللّفظ من قِبَلِ المتكلّم فيما ذُكر في التعريف[2].

تنقسم الكناية باعتبار المعنى المكني عنه إلى ثلاثة أقسام[3]:

1- كناية يطلب بها صفة.

2- كناية يطلب بها موصوف.

3- كناية يطلب بها نسبة صفة إلى موصوف.

فالأولى: وهي المطلوب بها صفة ضابطها: أن يُصَرِّح بالموصوف وبالنسبة إليه، ولا يصرح بالصفة المطلوب نسبتها وإثباتها، ولكن يذكر مكانها صفة تستلزمها كما في المثال السابق: "فلان طويل النجاد" كناية عن طول قامته[4]. ومثالها في قول حسَّان بن ثابت:

أَلاَ أَبلِغْ أَبَا سُفيَانَ عَنِّي ، *** فَأَنتَ مُجَوَّفٌ نَخبٌ هَوَاءُ

وَأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتكَ عَبدًا *** وَعَبدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ

---

[1] – ينظر: ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، المرجع السابق نفسه، ج15، ص233.

[2] – ينظر: الميداني عبد الرحمن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ط1، 1996، ج2، ص135.

[3] – عوني حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، د.ط، د.ت، ج5، ص153.

[4] – المرجع نفسه، ص154.

وهنا يصوِّر لنا الشاعر أنَّ أبا سفيان رجل جبان، لا قلب له، خالي الوفاض، وأنَّه كالهواء، وفي قوله أنَّ السيوف تركته عبداً، ليس بمعنى العبودية الحَقَّة، وإنَّما كناية عن صفة الذلِّ والهوان والاستكانة.

والثانية: وهي الكناية المطلوب بها موصوف ضابطها: أن يصرح بالصفة وبالنسبة، ولا يصرح بالموصوف المطلوب النسبة إليه، ولكن بذكر مكانه أو صفته أو أوصاف تختص به، وتدل عليه، كما في قولك "فلان صفا لي مجمع لبه" كناية عن قلبه[1]. وجاءت في شعر حسَّان بن ثابت على نحو قوله:

أَعطَوا نَبِيَّ الهُدَى وَالبِرِّ طَاعَتَهُمْ، **** فمَا وَنَى نَصْرُهُمْ عنْهُ وَما نَزَعُوا

إِن قَالَ سِيرُوا أَجَدُّوا السَّيرَ جَهدَهُمُ، *** أَوْ قَالَ عُوجوا عَلَيْنَا ساعةً ، رَبَعُوا

مَا زَالَ سَيرُهُمُ حَتَّى استَقَادَ لَهُمُ *** أَهْلُ الصّليبِ، وَمَن كَانَت لهُ البِيَعُ

وهنا يصوِّر لنا الشاعر مقدار طاعة المسلمين لأمر النبي صلى الله عليه وسلَّم واجتنابه ما نهى عنه، حتى إنَّ الذين ضلُّوا من اليهود والنصارى استقادوا (أي أظهروا الولاء)، ففي قوله: "أهل الصليب ومن كانت لهم بيع" تكنية عن الموصوف الذي هو اليهود والنصارى.

[1] – المرجع السابق نفسه، ص157.

خاتمة

في ضوء دراستي لموضوع "جماليات القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام" فإنَّه كان لزاماً أن أتطرق إلى خلاصة شاملة تخصُّ هذا البحث، أذكر فيها أهمَّ النتائج التي توصلت إليها، وأجملها في النقاط التالية:

- لم يكن العرب في الجاهلية متفرقين لعذر، وإنَّما كانوا يتعمدون هذه الفرقـــة ويؤيـــدونها، ويبذلون في سبيلها كلّ دليل يوصل إليها، وكان الشعر إحدى تلك السبل، فكانوا يتفنَّنون في صياغته ويتسابقون في نظمه.

- ظهر الإسلام فظهرت معه تلك القيم الروحية، والأخلاق العالية، فوحَّد الصـــفوف وجمـــع العرب على كلمة الحق، وقد كانوا –قبله– عبارة عن طبقات اجتماعية متشرذمة –هنا وهناك، تحكمها الشقَّة وتُباعد بينها العصبيات، ولما أن أنزل الله عليهم القرآن فأعجزهم عـــن الإتيـــان بمثله، عندها خضعوا لكلماته، فانقادوا لأمره، واجتنبوا نهيه.

- لَّما أثَّر الإسلام في الحياة الاجتماعية أصبح هو أول مؤثر في الشعر، وفي عقليـــة الشـــعراء، وبذلك استطاع أن يمثّل مختلف جوانب الحياة الجديدة في عصر صدر الإسلام.

- لم يتوان الشعراء المخضرمون –من أمثال: حسَّان بن ثابت، وكعب بن زهير ..– لحظـــة في الذود عن الإسلام، واتخذوا من شعرهم وسيلة شَقُّوا بها على المشركين والكفَّار.

- استطاع شعر صدر الإسلام أن يصوِّر الحياة الاجتماعية والدينية والثقافية، والأحداث الـــتي أحاطت بها تصويراً دقيقاً، ثمَّ إنَّه اتَّخذ من القرآن مرجعاً ثم أصابه منه سهم عظيم، فاســـتطاع تحرير العقول، وتنوير البصائر، وسارع في لمِّ الشَّمل، وبذلك تترَّه عن الظنون، وخـــرج عـــن المألوف.

- طالت شعر صدر الإسلام العديد من التحولات على مستوى اللفظ، ثم أتت قـــيم الـــدين الحنيف لتطال ظاهرة التجديد المعاني أيضاً.

- قد امتزجت القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام بالقصيدة العربية في العصـــر الجـــاهلي، بعدما أدرك كثير من الشعراء المخضرمين الإسلام، وحلُّوا تحت لوائه، وقد أثَّر ذلك على الشعر العربي أيَّما تأثير.

- انفرد شعر صدر الإسلام عن شعر العصر الجاهلي ببعض الأغراض والتي تمثَّلـــت في شـــعر الفتوح، وشعر البديعيات (المديح النبوي)، شعر المناجاة، وجزء منه في النقائض.

- إنَّ شرارة الحروب التي نشبت بين المسلمين من جهة والمشركين من جهة أخرى، كانت دافعاً لأن تشتعل ملاسنات كلامية بين الفريقين فكان الشعر قائدها، وحسَّان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلَّم الغالب فيها، وبذلك أدرك المنزلة الرفيعة عند رسول الله وعند المسلمين، وقد أسهم شعره في تعزيز الصورة الفنِّية التي تُعدُّ جانباً من الجوانب الجمالية في القصيدة العربية.

- تمَّ بحمد الله-

قائمـــــة

المصادر والمراجع

أولا– القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم

ثانياً– المعاجم:

1– ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414 هـــ.

ثالثاً– المصادر:

2– أبو الفتح شهاب الدين محمد الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتـــب، بيروت، لبنان، ط1، 1419 هـــ.

3– أحمد بن يحيى (ثعلب)، قواعد الشعر، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1995م.

4– البيهقي إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، مطبعة السعادة، مصر، ط1، د.س.

5– الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، طبعة الحلبي.

6– الجزري أبو الحسن علي بن أبي الكرم، بن الأثير عز الدين، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1997م، ج.1

7– الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المـــدني، جدة، د.س، ج1.

8– الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، دار المعارف، مصر، ط.1

9– الخفاجي أبو محمد بن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بـــيروت، لبنـــان، ط1، 1982م.

10– الدينوري أبو محمد بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمـــس الـــدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

11– الدينوري بن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، 1423 هـــ، د.ط.

12– الذهبي شمس الدين، سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2006 م، ج.3

13– السيوطي جلال الدين، المحاضرات والمحاورات، دار الغرب الإســـلامي، بـــيروت، ط1، 1424هـــ.

14- الشيباني أبي عمرو، شرح المعلقات التسع، تحقيق: عبد المجيد همو، مؤسســـة الأعلمـــي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 2001 م.

15- الشيباني محمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عـــادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، 2001 م، ج.38

16- الضبي المفضل بن محمد، المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبـــد الســـلام محمـــد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط6، .1984

17- الضبي المفضل بن محمد، أمثال العرب، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، .1983

18- الطبري محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000 م، ج.19

19- القرطبي أبو عبد الله محمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القـــرطبي)، تحقيـــق: أحمـــد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964 م.

20- المؤلف مجهول، العمدة في إعراب البردة قصيدة البوصيري، تحقيق: عبد الله أحمد جاجة، دار اليمامة للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1423 هـــ.

21- النمري أبو عمر يوسف القرطبي، بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمـــد مرســـي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.س، ج.1

22- النويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنـــون الأدب، دار الكتـــب والوثـــائق القومية، القاهرة، ط1، 1423 هـــ، ج.16

23- بن خلدون، المقدمة، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1978م.

24- طباطبا محمد بن أحمد، عيار الشعر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، د.ت.

25- فتح الدين محمد أبو الفتح، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط1، 1993 م.

رابعاً- المراجع:

26- أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصـــرية، مصـــر، ط2، 1954 م.

27- الأسد ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف بمصر، ط7، .1988

28- الجندي علي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبـــة دار التـــراث، ط1، 1412هـــــ - 1991م..

29- الزيات أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر، الفجالة- القـــاهرة، د .ط، د.ت.

30- القاضي النعمان عبد المتعال، شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبـــة الثقافـــة الدينية، ط1، .2005

31- الميداني عبد الرحمن، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشـــق، ط1، 1996.

32- الندوي علي أبو الحسن، السيرة النبوية، دار ابن كثير - دمشق، ط12، 1425 هـــ.

33- النوتي زكرياء عبد المجيد، الأدب الأموي تاريخه وقضاياه، مطبعة الحســـين الإســـلامية، جامعة الأزهر (مصر).

34- الهاشمي أحمد بن إبراهيم، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق: لجنة مـــن الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، 1998، ج.2

35- بن هلابي صالح بن سعيد، لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية، مجلة الجامعـــة الإســـلامية، المدينة المنورة، د.ط، د.ت.

36- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط4، 2001م.

37- حسين علي محمد حسين، التحرير الأدبي، مكتبة العبيكان، دون بلد، ط5، 2004 م.

38- ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، دار المعارف، مصر، ط7.

39- ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، مصر، د.س.

40- عوني حامد، المنهاج الواضح للبلاغة، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصـــر، د.ط، د.ت.

41- فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1981.

خامساً- الدواوين الشعرية:

42- حسان بن ثابت الأنصاري: الديوان، تقديم: مهنا عبد. أ، دار الكتب العلمية، بـــيروت، لبنان، ط2، 1994 م.

43- كعب بن زهير: الديوان، تحقيق: فاعور علي، دار الكتب العلميـــة، بـــيروت، لبنـــان، 1997 م، د.ط.

44- كعب بن مالك: الديوان، تحقيق: سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، بغداد، 1966 م.

سادساً- المجلات والدوريات:

45- الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، مجلة البحوث الإسلامية، العدد: 2.

46- خليل عبد السادة إبراهيم الهلال، شعر النقائض، محاضـــرات في الأدب الإسلامـــــي، الجامعة الإسلاميـــة، المدينة المنورة.

سابعاً- المذكرات:

47- حاجي أحمد، المراثي النبوية في صدر الإسلام، رسالة جامعية لنيل شـــهادة الماجيســـتر، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2001-2002.

ثامنا- الشبكة العنكبوتية:

48- حسان بن ثابت، (قومي الذين هم آووا نبيهم)، موقع الديوان، الشبكة، تاريخ التصفح: 2019/06/13. https://www.aldiwan.net/poem21570.html

49- زهير بن أبي سلمى، أمِـــنْ أُمّ أوْفَـــى دِمْنَـــةٌ لَمْ تَكَلّـــمِ (معلقـــة)، موقـــع (أدب)، http://www.adab.com.

فهرس

الموضوعات

فهرس الموضوعات

*** مقدمة** ..... **{أ-ج}**

*** الفصل الأول: عصر صدر الإسلام وأثره في الشعر** ..... **{2-21}**

1- التحولات الكبرى التي مسَّت المجتمع العربي **3**

1-1- العرب قبل الإسلام **3**

1-2- مكانة الشعر قبل الإسلام **6**

1-3- حال العرب بُعَيد ظهور الإسلام **8**

2- الشعر في عصر صدر الإسلام **12**

2-1- موقف الإسلام من الشعر **12**

2-2- جودة الشعر في صدر الإسلام **14**

2-3- المؤثرات العامة في شعر صدر الإسلام **17**

2-3-1- ظهور الدين **17**

2-3-2- الفتوح والجهاد **19**

2-3-3- الحاجة للمُحاجَّة **20**

الفصل الثاني: شعر صدر الإسلام خصائصه وأغراضه ..... **{23-37}**

1- خصائص شعر صدر الإسلام **24**

1-1- من حيث الموضوعات **24**

1-2- من حيث الألفاظ **26**

1-3- من حيث الخيال والتصوير **28**

2- أغراض شعر صدر الإسلام **30**

2-1- شعر المديح (البديعيات) **30**

2-2- الفخر والحماسة **31**

2-3- الهجاء **32**

2-4- الرثاء **33**

2-5- النقائض **35**

* **الفصل الثالث (التطبيقي): الصورة الفنِّية في شعر حسَّان بن ثابت** ..... **{39-54}**
1- حسَّان بن ثابت، شاعر الإسلام **40**
1-1- أصله ونسبه **40**
1-2- نشأته **40**
1-3- شأنه في الإسلام **41**
1-4- صدق شاعريته **41**
1-5- وفاته **42**
2- مصادر الصورة الفنِّية في شعر حسَّان بن ثابت **43**
2-1- الدين مصدر من مصادر شعر حسَّان **43**
2-2- الشعر مصدر من مصادر شعر حسَّان **47**
3- وظيفة الصورة وجمالياتها في شعر حسَّان بن ثابت **49**
3-1- وظيفة الصورة في شعر حسّان **49**
3-1-1- مفهوم الصورة **49**
3-1-2- تأثير ووظيفة الصورة في الشعر **49**
3-2- جماليات الصورة في شعر حسَّان بن ثابت **52**
3-2-1- الاستعارة **52**
3-2-2- الكناية **53**
* **خاتمة** ..... **{56-57}**
* **قائمة المصادر والمراجع** ..... **{59-62}**
* **فهرس الموضوعات** ..... **{64-65}**